البَابُ الأَوَّلُ

الوجود المصرى فى افريقيـــا فى الفترة

ما بين

١٨٢٠ — ١٨٦٣ .

الفصل الأول

الثروة البشرية

١ ـ محاولات محمد على جلب العبيد :

تمثل الثروة البشرية فى اى مجتمع من المجتمعات الدعامة القوية التى يقوم عليها تقدم المجتمع ونهضته فى كافة المجالات المختلفة ، وخاصة اذا توفر لهذه الثروة القيادة الواعية ، القادرة على توجيهها والاستفادة منها الى أقصى حد ممكن فمن المعروف ان المجتمع الفقير فى بنيانه البشرى لايمكنه أن يحقق أهدافه وتطلعاته .

وقد ادرك محمد على ، هذه الأهمية الحيوية للأيدى العاملة منذ اللحظة الأولى لتولية حكم مصر عام ١٨٠٥ ، وزاد اهتمامه بها بعد أن خاضت جيوشه العديد من الحروب التى افقدتها الكثير من القتلى ، فى الوقت الذى كان فيه هو فى أمس الحاجة الى زيادة عدد جيشه ، الذى يتمكن به من تحقيق أهدافه فيما يتعلق ببناء امبراطورية مترامية الأطراف فى آسيا وافريقيا .

ولكى يعيد محمد على بناء جيشه على أسس حديثة كان عليه أن يبحث عن مصدر يمكنه من الحصول على الأعداد اللازمة لبناء هذا الجيش ، بعيدا عن أبناء مصر الذين كان عليهم أن يتفرغوا للعمل الزراعى ، فلم يجد أمامه الا افريقيا التى كانت تنتشر فيها تجارة الرقيق على أوسع نطاق . (١)

---

(١) يمكن تقسيم الرقيق الى نوعين ، فهناك الرقيق الأبيض ، وهناك ـ الرقيق الاسـود ، أو العبيد السـود أن صح التعبير ، وكلمة العبيد هذه لا تعنى فى مضمونها العبيد الأبيض بعينه ، ولاتعنى أيضا العبيد السود ، وانما تعنى الجميع معا ، فكانت كلمة العبيد هذه تعنى جميع الرعـايا الذين يقطنون أى مجتمع من مجتمعات العالم بصرف النظر عن لونهم أو =

= مستواهم الاقتصادى والاجتماعى ، وقد ساد استعمال هذه الكلمة معظم بادان العالم ، منذ العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر ، فمثلا نجد أن سكان مصر فى ظل حكم محمد على كانوا يعرفون بالعبيد ، دون تمييز بين عناصرهم المختلفة فاستخدام هذه الكلمة لا يعنى الاهانة للفرد ، وانما استخدامها يتفق والمثل القائل (كلنا عبيد الله) . واما عن الحصول على الرقيق الأبيض ، فكان يمكن الحصول عليه بالأسر نتيجة الحروب أو بالاصطياد والقرصنة أو بالبيع والشراء ، وكانت عادة البيع والشراء هذه منتشرة فى ظل العصور الوسطى ، وخاصة من جانب فقراء المسلمين الذين كانوا — يقطنون مناطق الكرج والقوقاز ، فكان هؤلاء الآباء يبيعون أبنائهم بمحض ارادتهم ، وذلك للتخلص من أعباء معيشتهم ، وكان هؤلاء الآباء ايضا يعتقدون فى أن بيع أبنائهم الذكور ، ربما يساعد هؤلاء الأبناء فى أن يصبحوا فيما بعد حكاما أو امراءا ، وكان الاباء أيضا يعتقدون فى بيع بناتهم بأن هذا ربما يتيح لهن الفرصة فى أن يصبحن ملكات أو أميرات . وكان لايوجد فرق بين الرقيق الأسود والرقيق الأبيض من حيث الوظيفة او العمل الذى يقوم به كل منهما ، ولكن كان هناك فارق فى المعاملة التى يلقاها كل من الصنفين من سادته ، فمثلا نجد أن الرقيق فى اوربا فى العصور الوسطى كان يعامل معاملة سيئة للغاية ، ولامجال هنا للاستطراد ، بينما الرقيق فى ظل البلاد الاسلامية كان يعامل معاملة حسنة حتى انه كان يعامل كما لو كان من أفراد الأسرة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحض من وقت لاخر على عتق الرقيق ، ويعد أصحابه بالثواب الجزيل من الله تعالى . ولكن على الرغم من هذه المعاملة الطيبة التى لقيها الرقيق فى البلاد الاسلامية فان القلة القليلة منهم تعرضت للأذى من جانب تصرفات بعض الحكام ، فنجد مثلا أن أحمد باشا الجزار والى عكا ، قام بقطع السنة وأنوف ونهود جواريه بحجة التسلية عليهن ، ونجد أيضا أن ابراهيم باشا والى الشام قام بقتل مملوكه الخاص ، لانه ذهب الى الحمام بدون اذن منه ، وفى نفس الوقت أمر بدفنه على شرط أن تظل ارجله ظاهرة على سطح الأرض كى تنهش الكلاب لحمه ، كما نجده أيضا يأمر بالقاء أربعة من جواريه فى النيل ، لأن زوجته اتهمتهن بدس السم فى اللبن لأحد أبنائه ، وكما نجد أيضا عباس الأول من بعده يأمر بخياطة فم احدى جواريه لانه وجدها تدخن الدخان فى أحد طرقات قصره وأما عن الحصول على الرقيق الأسود

١٨٢١ (٢) ، كانت الأولى تحت قيادة ابنه اسماعيل الذى اتجه بها — مباشرة صوب فازوغلى الواقعة الى الجنوب من النيل الأزرق ، وكانت الثانية تحت قيادة محمد بك الدفتردار ، الذى توجه بها صوب كردفان ، وهناك دارت معركة بينه وبين سلطان دارفور ، تمكن الدفتردار خلالها من هزيمة خصمه فى بلدة بارة (٣) واستولى على الأبيض عاصمة كردفان فى ٢٠ أغسطس

— والذى لايختلف عن الرقيق الأبيض الا فى سواد لونه ، فكانت الغالبية العظمى من هذا النوع ، هى التى تقطن وحتى الوقت الحاضر معظم أفريقيا ، التى كانت فى القرن الماضى مصدرا من مصادر تجارة الرقيق فى العالم وخاصة بعد أن خفت حدة الحروب بين دول العالم ، فتدادى وقف هذه الحروب الى ظهور طبقة النخاسة التى ذهب أفرادها الى أفريقيا تحت ستار الاتجار فى العاج وريش النعام ، وهناك مارسوا حرفة الاتجار فى الرقيق الأسود على أوسع نطاق . وكان لنشاط هؤلاء التجار فى أفريقيا أثره على محمد على الذى كان فى أمس الحاجة الى العبيد السود (٢) أنظر كتاب تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل تأليف الأستاذ الياس الأيوبى من صفحة ٣٠٠ — ٣٠١ ، وانظر المقدمة من كتاب (التربية فى السودان من أوائل القرن السادس عشر حتى الثامن عشر للدكتور/عبد العزيز أمين عبد المجيد) .

٢ — تكونت الحملة التى زحفت على السودان فى يوم ٢٠ يوليو عام ١٨٢٠ ؛ والتى كانت تحت قيادة اسماعيل بن محمد على من ٤٠٠٠ مقاتل كان منهم ١٢٠٠ جندى من الفرسان العثمانيين و ٤٠٠ من الفرسان العرب والمغاربة ، ٦٠٠ من المشاه ، ٣٠٠ من رجال المدفعية ، ٨٠٠ من المشاة العرب والمغاربة ، ٧٠٠ من عرب العبابدة ، وقد أضيف الى هذا العدد ١٤٠٠ مقاتل آخرون فأصبح مجموع الحملة ٥٤٠٠ جنديا وقد زودت بأربعة وعشرين مدفعا . انظر كتاب « عصر محمد على » للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ص ١٧٣ . وتكونت الحملة الثانية التى زحفت على السودان أيضا فى شهر ابريل عام ١٨٢١ والتى كانت تحت قيادة محمد بك الدفتردار من ٣٠٠٠ مقاتل وقد زودت هذه الحملة بعشرة مدافع وتمكنت من هزيمة جيش سلطان دارفور فى موقعة بارة فى يوم ٢٠ أغسطس من نفس العام . أنظر كتاب (تاريخ السودان وادى النيل الجزء الثانى للدكتور شوقى عطا الله الجمل ص ٢٥) .

٣ — أنظر الخريطة الخاصة بموقعة بارة ١٨٢١م خلف صفحة (٣٣)

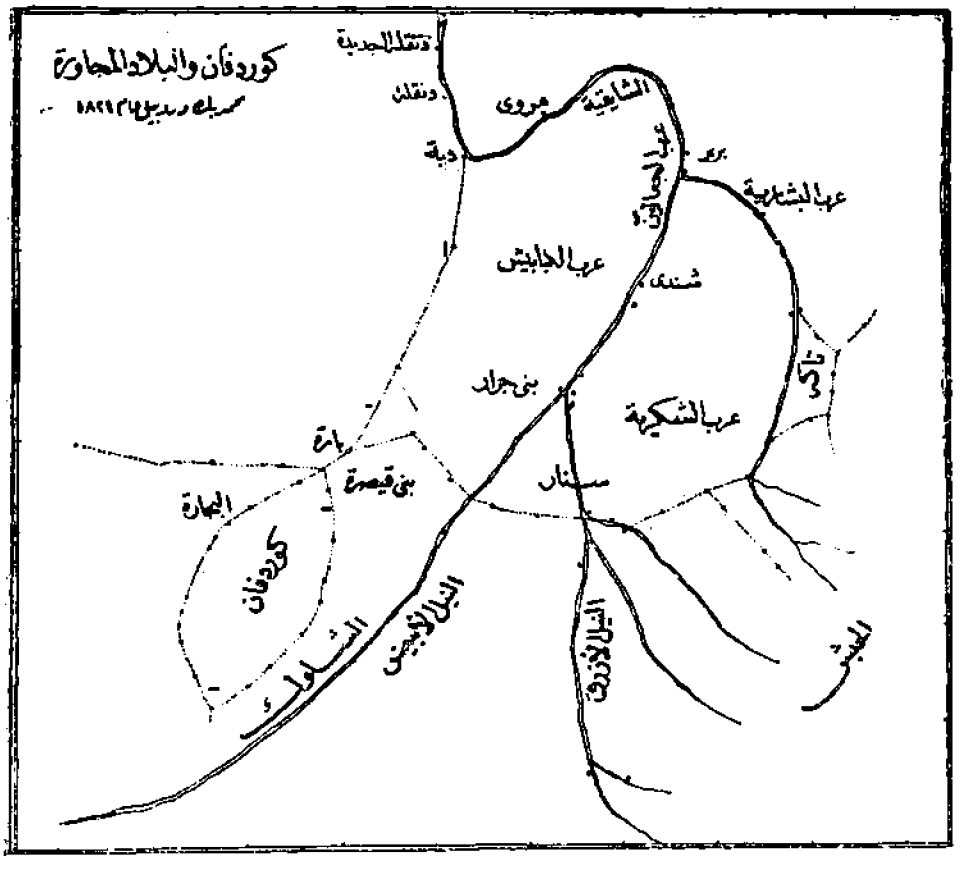

صورة الخريطة رقم (١)

وتمثل الموقعة التى دارت بين قوات محمد بك الدفتردار وقوات جيش سلطان دارفور عام ١٨٢١م .

عام ١٨٢١م (٤) وبهذا الانتصار تمكن الدفتردار من ضم كردفان الى السيادة المصرية .

وفى نفس العام ارسل محمد على مأمور جرجا الى مديرية بربر ، وذلك لارسال الأخشاب اللازمة لبناء ثكنات ، فى كل من أسوان واسنا . للعبيد السود المزمع ورودهم من السودان وكان بصحبة مأمور جرجا هذا ١٥ نجارا كانوا مزودين بنحو مائتين من البلط لاستخدامها فى قطع الأخشاب التى تقرر أن تلقى بعد قطعها فى النيل ، لتصل بالتالى مع التيار الى أسوان واسنا ، وكان محمد على قد طلب من مأمور دنقلة أن يزود هؤلاء النجارين بالاعداد اللازمة من العمال كى يعاونهم فى قطع الأخشاب المطلوبة (٥) .

يبدو أن الغرض من جلب محمد على للاخشاب من السودان ، بدلا من جلبها من بلاد الأناضول والشام ، كان يرجع الى عدة عوامل منها قرب بلاد السودان من أسوان واسنا مما يؤدى الى التقليل من قيمة النفقات اللازمة للشحن والنقل والتفريغ خاصة وأن الأخشاب سترد مع تيار النيل ، وربما كان محمد على لا يرغب فى أن يعرف السلطان العثمانى مشروعاته الحربية الجديدة ، حتى لايضع العراقيل أمام تنفيذها ، ومن الأرجح أن يكون هذا الراى صحيحا لأن محمد على كان لديه الأسطول الذى يمكنه من نقل الاخشاب اللازمة له من اى مكان .

بعد وصول الأخشاب المطلوبة الى أسوان واسنا ، بدأ العمال فى تشييد الثكنات اللازمة للجنود السود وقد انتهى العمل من تشييدها فى مدة قصيرة ، بعد ذلك زودت بما يلزمها من مؤن ومهمات وملابس ومعدات وأسلحة ، وذخائر ، كما زودت ايضا بالمستشفيات اللازمة لعلاج هؤلاء الجنود حتى لايكونوا عرضة للامراض الفتاكة ، زيادة على ذلك فانها زودت بعدد كبير من الضباط الذين كانوا يقومون بتدريب هؤلاء الجنود الجدد ، وكان

---

(٤) د/شوقى عطا الله الجمل : تاريخ سودان وادى النيل جـ٢ ، ص ٢٨ .

(٥) ملخصات دفاتر المعية السنية محفظة ١ وثيقة ١٠ فى ٢ محرم سنة ١٢٣٧هـ الموافق ١٨٢١م .

هؤلاء الضباط على جانب كبير من العلم والمعرفة ، لانهم تلقوا تعليمهم على ايدى احد كبار القادة الفرنسيين ، وهو الكولونيل سيف Seve الذى عرف فيما بعد باسم سليمان باشا الفرنساوى (٦) .

وبعد تجهيز جميع الثكنات كتب محمد على الى قادة جيشه فى السودان يقول لهم ما نصه :

« حمدا لله ثم حمدا أن ثكنات اســـوان واسنا وفرشوط ، قد اكتسبت نظامها ، ولم يبق شىء من الأمور ، الا ورود العبيد الذين نطلبهم » (٧) .

وكان جلب العبيد السود يتم بطرق مختلفة منها الصيد والشراء ، ومنها الحصول عليهم من القبائل كضرائب ، بدلا من تحصيلها نقدا أو عينا ، وكانت اولى هذه الطرق هى طريقة الصيد التى كانت تتم بمهاجمة قوات محمد على للقبائل السودانية فى كل مكان وذلك لالقاء القبض على العدد المطلوب من العبيد السود . بعد ذلك يتم ارسالهم الى مصر ، ويتضح ذلك جليا من قراءة احد خطابات محمد على الى حاكم السودان الذى جاء فيه ما نصه :

« لمـــا كان ظاهرا جليا ان المراد والمقصـــود من سرق امثالكم احب اولادى الى مثل هذه المصالح الصعبة والاعمال العسيرة من ارســال كل هذا القدر من الجنود ، وصرف كل هذه المهمات واللوازم منحصرين فى مســـألة جلب المقادير الكبيرة من العبيد ، فارنى همتك فان اعز مطلوبنا هو أن تشدوا الرحال وتشمروا عن ساعد الجد ناقرين بهمة واقدام الى مهمة جلب العبيد وارسالهم شيئا فشيئا ، على الصورة المامولة متخذين الشجاعة شـــعارا ، ولا يساوركم فى هذا الصدد ادنى تردد ، بل نطلب أن تذهبوا الى كل صوب وجهة ، بمزيد من الجد والاقدام فتنقضوا وتضربوا وتأخذوا ما ينفعنا ويوافق عملنا من رعايا البنادر والقرى » (٨) .

---

(٦) عبد الرحمن الرافعى ، المصدر السابق ص ص ٣٨٠ ، ٣٨٣ .

(٧) د/مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل (مصر والسودان) ـــ ص ٣٤٧ .

(٨) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٤٩ معية سنية فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٣٧ الموافق ١٨٢١م .

وبعد أن تلقى حاكم عام السودان تعليمات محمد على قام من فوره بمهاجمة بعض قبائل سنار ، وتمكن من قنص عدد من العبيد ، بلغ حوالى ١٩٠٠ عبد ، ثم قام بارسالهم الى اسنا مع سليم اغا أحد قادته ، وعندما علم محمد على بقدوم هؤلاء العبيد كتب الى مأمور اسنا خطابا جاء فيه ما نصه :

« علمنا من مكاتبة نجلنا صاحب السعادة الباشا سر عسكر السودان ، أنه ارسل نحو الالف وتسعمائة زنجى ، فمن اللازم فرز الذين يصلحون لصالحنا من ذكور الزنوج المذكورين ، مهما كانوا وابقاؤهم فى اسنا مهما كان عددهم ، وان ارادتنا تقضى أنه اذا كان يوجد لدينا اشغال يمكن معها استخدام الباقين كالنسوة والصبيان فيستخدمون فيها واذا لم توجد فيباعون » . (٩) .

لم يكتف محمد على بعدد العبيد السود ، الذين أرسلوا اليه من السودان ، بل نجده يطلب من ابنه اسماعيل أن يرسل المزيد منهم ، وكان محمد على قد افهم ابنه أن الغرض من ذهاب القوات المصرية الى السودان ، هو الحصول على العبيد ، واخبره أن العبيد بالنسبة له لا يقلوا فى اهميتهم عن الجواهر ، وطلب منه أن يحافظ على حياتهم وخاصة أثناء قدومهم الى مصر ، وذلك بتوفير ما يلزم لهم من مأكل ومشرب ، ويتضح ذلك من خطاب محمد على الذى جاء فيه ما نصه :

« أن الغرض من مجيئكم الى هذه البلاد هو الحصول على العبيد اللازم ايتفاؤهم وفق المطلوب ، وايصالهم الى ثكنات اسوان ، غير معرضين الى الضياع والتلف ، وليس فى نيتنا ولا فى نظرنا غاية أعز من هذا الامل ، كما هو ظاهر ، وان قيمة العبيد عندنا بمثابة قيمة الجواهر ، نظرا لمقتضى الوقت والحال ، بل هى أعز من تلك وأجل والمطلوب ارسال ٦٠٠٠ من العبيد » . (١٠)

---

(٩) د/مكى شبيكة : المصدر السابق ، صص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(١٠) محفظة ٣ معية سنية ، وثيقة ٣٤٠ ، دفتر ١٠ معية تركى فى ٩ ربيع أول سنة ١٢٣٧ الموافق ١٨٢١م .

لم يتمكن حاكم السودان من تنفيذ أوامر محمد على ، على وجه السرعة بسبب ظروف السودان المناخية وبصفة خاصة فى أثناء موسم المطر الذى تتوقف خلاله جميع الأنشطة الاقتصادية فى البلاد ، بما فى ذلك صيد العبيد (١١) ولكن بعد أن علم محمد على بذلك كتب الى حاكم السودان يقول ما نصه :

« انه اذا انقضى موسم الأمطار ، وحان زمن الخروج الى الجهات التى يرجى منها وجود العبيد استولوا على الكثير منهم وعليك أن تعنى بارسال الكثير منهم ، وان تملأ ثكنات أسوان فى هذه السنة بهم بفضل الله تعالى ، وان تهتم بهذا الأمر أكثر من أى شىء » . (١٢)

يبدو أن طريقة الصيد التى اتبعها محمد على فى بداية الأمر اضرت بالقبائل السودانية ، التى تعرضت لعمليات الهجوم ، فمن المرجح أن الأعداد التى كانت تنجو من القنص كانت تفر هاربة الى المناطق النائية لكى تنجو بحياتها وكانت القبائل التى لا تتعرض للهجوم تفر هى الأخرى بالتالى بمجرد أن تسمع عما حدث لغيرها من مخاطر ، وحتى لا تلقى نفس المصير المحتوم ، وربما ترتب على ذلك تدهور فى أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية، زيادة على انتشار الفوضى والذعر فى أرجائها .

ومن المرجح أن محمدا عليا عند ما علم بالأضرار التى ترتبت على عمليات صيد العبيد وما أدت اليه من أضرار بالغة أصابت كيان البلاد بالخلل . قرر الغاءها واستبدالها بطريقة اخرى اقل ضررا .

كانت الطريقة الجديدة التى حلت محل السابقة هى طريقة الشراء فقد طلب محمد على من ناظر مصلحة أسوان أن يقوم بشراء العبيد السود ، وخاصة الذكور منهم ، من تجار الجلابة القادمين من دارفور (١٣) وطلب منه

---

(١١) د/ محمد محمود الصياد ، ومحمد عبد الغنى سعودى ، المصدر السابق ص ص ٩٩ ــ ١٠٠ .

(١٢) وثيقة ٣٤٠ دفتر ١٠ معية تركى فى ١٩ ذى القعدة سنة١٢٣٧الموافق سنة ١٨٢١ .

(١٣) سمح محمد على لتجار دارفور بممارسة تجارة الرقيق فى بلادهم ، وكان من قبل قد طلب من مدير دنقلة أن يمنع هؤلاء التجار من القدوم الى مصر كى يعرقل تجارتهم ولكنه سمح لهم فيما بعد بممارسة تجارتهم ، بل وأمر حكامه بشراء ما معهم من عبيد ، وكانت دارفور فى ذلك الوقت غير تابعة لنفوذ محمد على .

ايضا ان يترك لهم النساء والمسنين والصبيان (١٤) وكانت طريقة الشراء المتبعة هو ان يقوم ناظر مصلحة اسوان ، اما بشراء العبيد من التجار بأثمانهم الأصلية ، واما أن يقايضهم على ما معهم من عبيد ذكور بالجوارى ، وندلل على ذلك بما ورد فى احد خطابات محمد على الى ناظر مصلحة اسوان الذى جاء فيه :

« حاصل القول يا ولدى أن المصلحة تقتضى المتاجرة مع جلابى دارفور بمبادلة العبيد بالجوارى » . (١٥)

كان من نتائج عمليات الشراء هذه أن ازدحمت ثكنات اسوان بالعبيد ولكن محمد على لم يكتف بهذا القدر بل طلب من مأمور جرجا أن يقوم بشراء العبيد السود من الجلابة الذين يأتون الى مديريته ، حتى ولو كانت أعمارهم لا تتعدى سن الثالثة عشرة ، وطلب منه ايضا ، الا يرسلهم الى معسكرات اسوان ، وذلك لازدحامها بالعبيد (١٦) . ويبدو أن هؤلاء العبيد الذين كانوا يأتون مع الجلابة الى جرجا ، جاءوا عن طريق سواكن — برنيس — قفط (قنا) ، وذلك ليبعهم بعيدا عن اعين الحكومة المصرية ومن المرجح أن يكونوا قد أتوا من هذا الطريق كى يتفادوا جمرك اسوان .

لم تقتصر طريقة الشراء على مأمورى كل من مصلحة اسوان وجرجا فحسب ، بل قام بها ايضا حاكم السودان ، وخاصة عند ماطلب منه محمد على أن يدفع أثمان العبيد من قيمة النقود المتحصلة من الضرائب المقررة على السواقى وقد بلغت قيمة ضريبة الساقية ٤ فرنسات (١٧) .

---

(١٤) محفظة ١ وثيقة ٣٦١ — معية سنية فى ٤ جمادى ثان سنة ١٢٣٧ الموافق سنة ١٨٢١م .

(١٥) وثيقة ٢١٩ ، دفتر ١٠ معية تركى فى ٢٢ رجب سنة ١٢٣٧هـ الموافق ١٨٢١ م .

(١٦) محافظ ابحاث السودان — دفتر ١٠ وثيقة ٣١٨ — معية سنية فى ٢٥ شوال سنة ١٢٣٧هـ الموافق ١٨٢١م .

(١٧) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٦ وثيقة ٦ صادر معية فى ١١ جماد ثان سنة ١٢٤٢ الموافق ١٨٢٦م .

الى جانب عمليات الشراء هذه ، استخدم محمد على طريقة اخرى تتمثل في نظام الفردة الذى كان يعتبر نوعا من انواع الضرائب المعروفة بالسودان. فقد قرر محمد على أن يحصل على عبد واحد ، مقابل الفردة المقررة على كل خمس سواقى (١٨) ومن المرجح أن هذه الطرق الثلاث التى استخدمها محمد على فى جلب العبيد السود لعبت دورا كبيرا فى جلب أكبر عدد ممكن من هؤلاء العبيد السود ، اللازمين لمشروعاته العسكرية والاقتصادية .

٢ ـ نقل العبيـــد :

تطلب نقل العبيد السود من السودان الى صعيد مصر وسائل نقل سريعة ومأمونة ، بحيث تكفل لهم الراحة والحماية ، وازاء هذا لم يجد محمد على بدا من أن يشرع فى صناعة عدد كبير من الناقورات (١٩) التى تستخدم فى نقل

---

(١٨) نفس الوثيقة .

(١٩) الناقورة نوع من انواع المراكب التى ارتبط تاريخها بتاريخ الأنهار وكان نيلنا العظيم الميدان الأول لنشأة المراكب ، وتطورها ونموها ، وكان لأجدادنا القدامى شأن عظيم فى فن بناء السفن ، وخير دليل على ذلك مراكب الشمس الموجودة الآن بالمتحف المجاور لهرم خوفو ، وعن المصريين نقل الفينيقيون والاغريق والرومان ثم الأوربيون فن صناعة السفن ، وكانت السفن المصرية أول سفن قامت برحلة بحرية عرفها التاريخ ، وهى رحلة سفن الملكة حتشبسوت فى البحر الأحمر الى بلاد بونت (الصومال الحالية) ويتضح ذلك من الرسوم والنقوش الموجودة على جدران الدير البحرى . انظر كتاب تصميم السفن ، للدكتور محمد عقيل صفحة (٥) .

وقد أضاف كل من ريتشارد هيل فى كتابه النقل فى السودان،وصفا دقيقا للناقورة قال فيه :

«Sudan nuqur, a ship wasbuilt of blanks of sunt wood shaped by the adze and spiked together. In endeavour to exploit local resources the egyptians flounded shipyards wherever there was a supply of sunt for the building of native Cargo Carriers and Ferries.» (1)

هؤلاء العبيد السود وعندئذ كلف كلا من مديرى دنقلة وبربر ان يقوما بهذا العمل بعد ان يزودهما كل من مديرى قنا وابريم ، بعدد من النجارين يقدر بنحو ١٥٠ نجارا ، وبعدد آخر من النشارين والحدادين (٢٠) وقد تمكن هؤلاء العمال من صناعة عدد من هذه الناقورات من خشب السنط ، الذى يوجد بوفرة فى بلاد السودان ، والذى يتميز بمتانته التى تجعله يعيش مدة طويلة من الزمن ، بالاضافة الى تحمله الصدمات والارتطام بالصخور والأماكن الرخوة وقد استخدمت هذه الناقورات بعد صناعتها فى نقل العبيد بنجاح كبير، والى جانبها استخدمت كذلك الزوارق والذهبيات التى كانت تقوم بنقل العبيد من سنار والخرطوم عبر النيل حتى بلدة بربر ، ومن بربر كان العبيد يركبون الناقورات عبر النيل النوبى حتى بلدة دير القمر ، ومنها يسيرون برا حتى يصلون الى حدود الشايقية ، ومن هناك يركبون مرة أخرى الناقورات الى حنك ومنها بالمراكب الى وادى حلفا (٢١) ومن حلفا الى أسوان . يبدو ان استخدام الزوارق والذهبيات فى نقل العبيد فى المسافة من سنار وحتى بربر ، يرجع الى أن هذه المنطقة كانت خالية من الصخور والجنادل التى تعترض مجرى النهر ، وربما يرجع استخدام الناقورات للسفر فى النيل النوبى ، الى أنها كانت تتحمل الارتطام بالصخور .

بعد وصول العبيد الى ثكناتها فى مصر زودها محمد على بملابس كانت عبارة عن قمصان بيضاء مصنوعة من البفتة ، ولكن هذا النوع من الملابس لم يصلح للعبيد وذلك لعدم متانته وتحمله لأجسامهم ، مما اضطر محمد على ، أن يستبدله بنوع آخر من القماش ، يعرف بقماش الزعابيط ، الذى يتميز بالمتانة وقوة التحمل . ولقد ثبت فيما بعد عدم صلاحيته كذلك مع العبيد الذين

Dr. Schweinfurth added that «The Nuggers are so strong as they are massive being built to with stand the violent pushing the hippopotami, as well as collisions with the mussed banks which are scattered in various directions. (2)
Regard : Richard, Hill : Sudan transport. P. 2.
and regard : Report on the Egyptian provinces in the Sudan. P. 144.

(٢٠) محفظة (١) وثيقة ١٧ معية سنية فى ١٧ محرم سنة ١٢٣٧ الموافق ١٨٢١م .

(٢١) وثيقة ١٤ معية ، سنية بدون تاريخ .

تحولوا الى جنود مما دفع محمد على أيضا الى أن يستبدله بنوع آخر من قماش قلوع المراكب (٢٢) .

وكان قد طلب من ناظر الجهادية أن يأمر بتفصيل هذا النوع من القماش تفصيلا حسنا ، كى يعطى الجنود مظهرا مقبولا ، ومن المرجح فى اختيار محمد على لهذا النوع من القماش هو اعتقاده فى متانته وقوة تحمله لأجسام الجند وبصفة خاصة فى أثناء التدريب وفى أثناء خوض المعارك .

٣ ــ استخدام العبيد :

عمل العبيد السود الذين جلبوا من السودان ، فى كافة الأعمال المختلفة فعملوا فى الجيش وفى الزراعة والصناعة ، وفى الأعمال المنزلية الأخرى ، لكننا نلاحظ أن الجيش قد استأثر بالغالبية العظمى من أعداد هؤلاء السود فقد الحق محمد على الشباب الذكور منهم بمختلف وحدات جيشه ، وكون منهم فى بداية الأمر آلايان ، يتألف الواحد منهما من ثلاث أورط (كتيبة) وقد تكونت الأورطة الواحدة من ثمانية بلوكات وذكر الدكتور محمد محمود السروجى أن هذين الآلايان كانا يحملان الرقمين التاسع والعاشر (٢٣) .

لم يعرف بعد ، وعلى وجه التحديد عدد العبيد السود الذين جلبوا من السودان سواء ، كانوا ممن جندوا بالجيش المصرى ، أم سواء كانوا ممن عملوا فى الأعمال المختلفة الأخرى ، باستثناء ما ذكره الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه (عصر محمد على) فى صفحة ٦٥١ ، من أن عدد السودانيين المنتظمين بالجيش بلغ ٢٥٠٠ جندى ، وأن عدد الجوارى السود بلغ ١٠٠٠ جارية ، وان عدد العبيد الذين عملوا كخدم فى المنازل بلغ نحو ٢٠٠٠ عبد ، ومن المرجح أن هذه الأرقام غير صحيحة لأنها لاتتناسب مع ما اتخذه محمد على من اجراءات بشأن جلب أكبر عدد ممكن من العبيد السود .

---

(٢٢) محفظة ٣ معية سنية ، وثيقة ١٧٤ فى ٢٥ جمادى الثانية سنة ١٢٣٧ الموافق ١٨٢١م .

(٢٣) د/ محمد محمود السروجى : الجيش المصرى فى القرن ١٩ ، ص ص ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٦٢٣ .

ولكن ريتشارد جرى Richard Gray ذكر فى كتابه تاريخ السودان الجنوبى فى صفحة خمسة ما نصه : « ان اى حملة مصرية كانت ترسل لمهاجمة اى جبل من جبال السودان ، كانت تعود وهى تجلب معها ما يقرب من ٥٠٠٠ آلاف من العبيد » (٢٤) ربما يكون هذا الرقم الأخير مبالغا فيه ، ولكن ربما يكون على جانب كبير من الصحة ، لأنه يتناسب مع الاجراءات الضخمة التى اتخذها محمد على فى سبيل الحصول على أكبر عدد ممكن من العبيد السود .

تميز الجنود السود عن غيرهم بالشجاعة والطاعة وحب النظام ، ولكن على الرغم من كل هذه الصفات الحسنة فان عددا قليلا منهم كانوا فى بعض الأحيان يقومون بالتمرد والعصيان ، وندلل على ذلك بما ذكره حكمدار السودان حيث قال : « اما العساكر السودانية ، فانهم من القديم متعودين على عدم الضبط والربط ، وان الفوضى راسخة فى أذهانهم كالمرض المزمن ، ويتضح ذلك من عدم اصغائهم الى النصائح والتلقينات القانونية والعسكرية الموجهة اليهم ، واعراضهم عن قبولها كقاعدة للعمل على حسب المعتاد (٢٥) .

وتأكيدا لما ذكره حكمدار السودان ، نجد أن بعض جنود معسكر التاكه قاموا فى عام ١٨٤٥ م بالتمرد والعصيان ، وادى تمردهم هذا الى اثارة القلق والاضطراب بين سكان المديرية ، ولكن الحكمدارية تمكنت من اخماد هذه الفتنة واعادة الأمور الى نصابها ، وقد تراوح عدد الجنود الذين قاموا بالعصيان ، فيما بين ٥٠٠٠ ، ٦٠٠٠ جندى وفى نفس العام حدث تمرد آخر فى معسكر واد مدنى كان من نتائجه انتشار الفوضى والاضطرابات بين السكان ولكن الحكمدارية تمكنت أيضا من اخماده ، وقدمت ٢٦ جنديا للمحاكمة بتهمة التمرد ، وبعد محاكمتهم تقرر اعدامهم ، ولكن لما عرض الامر على محمد على خفف عنهم هذا الحكم ، واكتفى بارسالهم الى مصر تمهيدا لتوزيعهم على كافة الوحدات العسكرية المختلفة ، وفى نفس الوقت رقى الجندى / جورج الى رتبة الجاويش ، كمكافأة له لتبليغه عن هذه الفتنة (٢٦) .

---

(٢٤) Richard Gray : A History of the southern Sudan. P. 5.

(٢٥) د/ محمد محمود السروجى : المصدر السابق ص٦٢٣ .

(٢٦) محفظة ٢ وثيقة ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٦١هـ الموافق ١٨٤٥م .

يبدو أن السبب فى تمرد الجنود السودانيين كان يرجع الى سوء الادارة والقيادة معا ، فربما كان الدافع وراء قيام هؤلاء الجنود بالتمرد والعصيان ، هو عدم حصولهم على مستحقاتهم من التعيينات والمهمات ، وربما كانوا يحصلون عليها ولكن بكميات قليلة لا تتناسب مع ما يبذلونه من جهد ، ومن المحتمل أيضا أن الدافع وراء هذا التمرد هو أنهم كانوا لا يصرفون مرتباتهم الشهرية فى مواعيدها المحددة ، بل كانوا يتركونها لفترات طويلة تصل فى بعض الاحيان الى شهور عدة ، دون أن يحصلوا عليها ، وربما يرجع ذلك الى انعدام الصلة بين مركز الحكمدارية ووحدات الجيش التابعة لها ، والسبب فى ذلك بالطبع هو صعوبة المواصلات وطول المسافات .

ولكن على الرغم من قيام بعض هؤلاء الجنود بالتمرد والعصيان الا أنهم لعبوا دورا هاما الى جانب اخوانهم من المصريين فى حروب اليونان والشام والحجاز ، وفى مقابل ذلك لقوا من نظارة الجهادية كل العناية والرعاية ، من حيث حصولهم على التعيينات والملابس (٢٧) والترقى بالاضافة الى تمتعهم بالرعاية الطبية ، فكان الاطباء المصريون يقومون بتوقيع الكشف الطبى عليهم وتطعيمهم ضد الجدرى والأمراض المعدية الأخرى . (٢٨)

عمل العبيد السود كذلك فى الزراعة الى جانب عملهم فى الجهادية ، فقد اختار محمد على مجموعة منهم،اشتملت على الأطفال والنساء والرجال، وخصص لهم قرية صغيرة تقع بجوار منفلوط ، عرفت باسم « كوم كام بوها » وقد زودها بعدد من مهرة الفلاحين المصريين ، وذلك لتعليم السود حرفة الزراعة ، وبطاحونة لطحن الغلال وبمسجد ليؤدى السكان فيه الصلوات الخمس ، وبعدد من الماشية والأغنام والطيور والملابس والأطعمة . (٢٩)

---

(٢٧) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٩١ صادر معية ، وثيقة ٤٥٤ فى ١٤ محرم سنة ١٢٦٢ الموافق ١٨٤٥م .

(٢٨) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٩ ، وثيقة ١ صادر معية سنية فى ٢٣ صفر ١٢٦٦هـ الموافق ١٨٤٨م .

(٢٩) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٦ معيه تركى ، وثيقة ١٥٤ فى ٢٤ جماد أول سنة ١٢٣٩هـ الموافق سنة ١٨٢٣م .

ولكن على الرغم من هـذه الرعاية والعناية التى لقيها هؤلاء العبيد السود ، من قبل محمد على ، عندما أرسلهم الى قريتهم الجديدة ، حيث كان يهدف من ورائها اساسا الى النهوض اقتصاديا واجتماعيا بهؤلاء العبيد ، الا انهم فشلوا فشلا ذريعا فى اتقان مهنة الزراعة والدليل على ذلك انهم عجزوا تماما عن تسديد قيمة اثمان الأشياء التى حصلوا عليها من قبل الحكومة المصرية ، مما اضطر شيخ هذه القرية الى أن يطلب من محمد على أن يسمح له بتوزيع سكان هذه القرية من العبيد وبخاصة أقوياء البنية منهم على بعض المصانع ، ولكن محمدا عليا رفض هذا الاقتراح ، وطلب من هذا الشيخ أن يستخدم القسوة فى معاملتهم حتى يجدوا ويجتهدوا فى اعمالهم الزراعية . (٣٠)

يبدو أن فشل هؤلاء الزنوج فى فلاحة الأرض يرجع الى انهم جبلوا على حياة الكسل والخمول ، وذلك راجع الى نشأتهم فى بيئتهم الاصلية ، التى يعتمد الانسان فيها على الجمع والالتقاط ، اى انهم كانوا يعيشـــون حياة بدائية بسيطة لا يمارسون فيها حرفة الزراعة الا نادرا . وربما يرجع السبب فى فشلهم الى انهم كانوا من العبيد كبار السن وهم فى هذه الحالة لا يستطيعوا القيام بحرفة الزراعة ، ومن المرجح أن يرجع الفشل الى عدم حبهم للعمل الزراعى لأنهم لم يتعودوا عليه من قبل .

لم يقتصر أمر توطين العبيد السود على قرية (كوم كام بوها) وحدها . بل نجد مجموعات منهم قد توطنت فى بعض مديريات الوجه البحرى ، فقد حدث ذلك عندما طلب محمد على عام ١٨٤٥م من حكمدار السودان احمد باشا المنكلى ان يرسل له حوالى ٢٠٠ من العبيد الذكور والاناث ، وذلك للعمل فى جفالق بشنتواى بالبحيرة ، وقد استجاب الحكمدار لمطلب محمد على وارسلهم فى العام التالى (٣١) وقبل ذلك كان قد أرسل من حى السيدة زينب (٣٢)

---

(٣٠) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٢٥ صادر معية ، وثيقة ٢٤٤ فى آخر محرم عام ١٢٤٢هـ الموافق ١٨٢٦م .

(٣١) محافظة ابحاث السودان ـــ دفتر ٤١٩ معية تركى ، وثيقة ٤٣٥٨ فى ١٧ ربيع ثان سنة ١٢٦٣هـ الموافق ١٨٤٦ .

(٣٢) حى السيدة زينب كان مركزا من مراكز تجميع العبيد السود ، القادمين من السودان فى عهد محمد على باشا .

عددا من العبيد الى ميت غمر ، وقد شمل هذا العدد الأطفال والرجال والنساء (٣٣) ولكن لم يعرف بعد الغرض الذى أرسلوا من أجله الى ميت غمر ، فهل أرسلوا من أجل العمل الزراعى أو الصناعى فلا اعلم بشىء ، لأننى لم اجد من الوثائق ما يفيد ذلك فهذه النقط لاتزال موضع بحث .

من الملاحظ أن العبيد السود لم يكن لهم دور يذكر فى مجال الزراعة ، بقدر ماحققوه من نجاح فى بعض المجالات الأخرى ، كالعمل فى الجيش والصناعة وكالعمال فى خدمة المنازل .

فالى جانب الأعمال السابقة ، عمل العبيد السود فى المصانع العديدة التى انشأها محمد على ، فعملوا فى مصانع البنادق والمدافع والبارود والحدادة والمهمات (٣٤) كما عمل النساء منهن فى مصنع النسيج الذى انشىء فى القلعة والذى ضم ٢٠٠ مائتين من الانوال (٣٥) ويبدو أن النساء اللائى كن يعملن فى مصنع النسيج كن من زوجات الجنود ، وربما كن من السيدات اللائى فقدن أزواجهن فى الحروب ، ومن المرجح أن يكن من السيدات اللائى لهن مقدرة على الأعمال الفنية ، لأن العمل على الانوال يحتاج الى مهارة خاصة ودقة فى العمل ، ولاتزال الفتيات حتى اليوم يمارسن العمل على الانوال وخاصة فى مصانع السجاد والأكلمة .

وزود محمد على جميع العمال الذين يعملون فى مصانعه المختلفة بتذاكر شخصية (بطاقات شخصية) كان يوضح فيها البيانات الخاصة بكل عامل . سواء كانت الأوصاف الخلقية ، المتمثلة فى الطول واللون ، او البيانات الأخرى التى تشتمل على الاسم والعقيدة والسن ، وكان من المتبع بعد استيفاء بيانات

---

(٣٣) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٧٥٦ ديوان خديو ، وثيقة ٢٢٢ فى ١٧ محرم سنة ١٢٤٦هـ الموافق ١٨٣٠م .

(٣٤) ملخصات المعية السنية ، وثيقة ٨١٥ فى ٢٥ الحجة سنة ١٢٣٧ الموافق ١٨٢١م .

(٣٥) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٩ معية تركى ، وثيقة ٣٦٥ فى ٢٩ جماد ثان سنة ١٢٣٧ الموافق ١٨٢١م .

هذه التذاكر أن تعتمد من ديوان التذاكر (مصلحة تحقيق الشخصية) ثم تختم بعد ذلك بخاتم هذا الديوان ، ثم توزع بالتالى على أصحابها (٣٦) ويبدو أن الغرض من عمل هذه البطاقات كان بمثابة حصر لعدد العمال الذين يعملون فى اى مصنع ، حتى يمكن حصرهم عندما يتغيب أحدهم عن العمل ، وربما كان الغرض منها هو تمييزهم عن غيرهم من العبيد الذين يعملون فى مهن أخرى ؛ ومن المرجح أيضا أن يكون الغرض من عملها راجعا الى أن العمال كانوا يحصلون بمقتضاها على مرتباتهم .

والى جانب ممارسة العبيد للأعمال السابقة عمل عدد كبير منهم كخدم فى المنازل ، وقد قدر عدد هؤلاء الخدم بنحو ١٠٠٠ جارية وزعن بمعدل جارية واحدة لكل منزل من المنازل وكن يقمن بأعمال الطهى وتربية الأطفال ونظافة المنزل (٣٧) .

كان مديروا المديريات يقتنون من الجوارى والخدم أعدادا كبيرة فربما يرجع السبب فى ذلك الى اتساع منازلهم ، ومدى حاجتها الى اعداد كبيرة منهم ، وقد ظهر ذلك بوضوح فى منزل عبدى اغا مدير دنقلة الذى وجد فيه بعد وفاته ٢٤ عبدا ، كان منهم ١٦ عبدا من الذكور ، حرر منهم اثنى عشر عبدا والحقوا بالخدمة العسكرية ، ووزع الأربعة الباقون منهم على المنازل للعمل فيها كخدم ، لانهم كانوا لايصلحون للعمل العسكرى ، وكان هؤلاء الخدم الذكور يمثلون عناصر مختلفة ، فكان منهم الجركسى والكورجى والأبازى والجزائرى . أما عن الجوارى اللائى وجدن فى هذا المنزل ، فقد وجد منهن اثنتان من الجوارى السود ، والباقيات منهن كن من الجوارى البيض ، وكان منهن جارية حامل (٣٨) يبدو أن النظام الذى كان متبعا بالنسبة

---

(٣٦) محافظ أبحاث السودان ـــ دفتر ٧٥٧ ـ ديوان خديو ، وثيقة ٢ فى ٢٩ شوال سنة ١٢٤٥ الموافق سنة ١٨٢٩م .

(٣٧) عبد الرحمن الرافعى المصدر السابق ص٦٥٢ .

(٣٨) محافظ أبحاث السودان ـ دفتر ١٧٣٣ ديوان خديو تركى ـ وثيقة ٧٦٧ فى ١٢ الحجة ١٢٤٢ الموافق ١٨٢٦م .

للجوارى ، وخاصة بعد موت سادتهم ، أن يعاد النظر فى توزيعهن من جديد ، بينما كان من يصلح من الشباب الذكور للجهادية يلحق بالوحدات العسكرية، وكان غير الصالح منهم للعمل العسكرى يوزع من جديد على المنازل للعمل فيها كخدم ، بما فى ذلك الجوارى أيضا ، وربما كان سادة الجوارى فى بعض الاحيان يقومون بمعاشرتهن معاشرة الازواج ، وكانوا ينجبون منهن أطفالا . والى جانب الجوارى والخدم كان يوجد نـوع آخر من الخـدم يعرف (بالخصيان) (٣٩) الذين كانوا يعملون بصفة خاصة فى قصور الحكام ،

---

(٣٩) الخصـــيان هم الاشخاص الذين يتولون حراسة حريم الأمراء والملوك ويرجع استخدامهم الى زمن بعيد ، فقد انتشر استخدامهم فى بلاد اليونان وكان من اشهرهم الخص (نرسيس) الذى كان أكبر قوادهم بعد بلجزير وانتشروا أيضا فى ايطاليه وفى آسيا واوربا وفى افريقيـا ولا سيما فى القطر المصرى فانهم كانوا أكثر انتشارا وذلك لسهولة الحصول على العبيد اللائق لعملية الخصيى ، وكانت حرفة الخصيان رائجة فى مصر بحيث كانت مدينتا أسيوط وجرجا هما الوحيدتين من المدن المصرية اللتين تباشر تلك العملية الشائنة ، وكانت قرية زاوية الدير القريبة من اسيوط عاصمة للقائمين على عمليات الخصى . فكانوا يقومون بخصى نحو ٣٠٠ شخص كل عام ، وكانوا يختارون هذه الضحايا من بين صغار العبيد السود ، الذين تتراوح أعمارهم فيما بين ٦ ، ٩ سنة والذين كانوا يأتون من سنار ودارفور ، وكان يتراوح ثمن الخصى الواحـد فيما بـين ١٥٠٠ ، ٣٠٠٠ قرشـــا .

كان من المتبع ان تجرى عملية الخصى فى فصـل الخريف لأنه أوفق فصول السنة ، ولم تقتصر عملية الخصى على بتر عضو التذكير وحده ، بل كان يبتر بالموسى جميع الاجزاء البارزة المرتبطة به ، ثم يصبون فى الحال على مكان البتر شيئا من الزيت المغلى ، ويركبون أنبوبة فى الجزء الباقى من مجرى البول وبعد القاء الزيت يذرون على مكان الجرح مسحوق الحنا ، ثم يدفنون الفتى الذى تم خصيه فى الأرض الى ما فوق البطن ، وبعد أن يتركونه فى هذه الحالة ٢٤ ساعة يستخرجونه من الأرض ، ويدهنون مكان الجرح منه بعجينة من الطين الأبليز والزيت ، وكان يموت من هؤلاء الصبيان نحو الربع ، واما الباقى فكانوا يقضون حياتهم فى الضعف والشقاء . وكان البعض منهم يصل الى اكبر مناصب الدولة ، ففى الاستانة مثلا ، وصل كبير الخصيان الى الحاشية السلطانية ، ورفع السلطان أحد خصيانه الى مرتبة الباشـــوية وعهد اليه بقيادة جيوشه .

لانهم فيما يبدو كانوا يعملون كحراس للأميرات ففى عام ١٨٤٥ م ، أرسل حكمدار السودان أحمد باشا المنكلى سبعة من هؤلاء الخصيان الى الأستانة للعمل فى قصر السلطان العثمانى (٤٠) .

٤ ــ موقف محمد على من تجارة الرقيق :

كانت تجارة الرقيق فى افريقيا معروفة ورائجة منذ زمن بعيد جدا ، وكانت متأصلة فى كيان السودان الاجتماعى والاقتصادى . وكانت هناك عدة قوافل للرقيق تأتى من السودان تعرف الأولى منها بقافلة النيل الأزرق ، التى كانت تبدأ رحلتها من سنار الى شندى ثم تصل الى ابى حمد ، ومنها الى كرسكو ، فأسوان ، وتعرف الثانية منها بقافلة النوبة ، والتى كانت تبدأ رحلتها من المحس الى اسيوط ، وتعرف الثالثة بقافلة كردفان ، والتى كانت تبدأ رحلتها من الأبيض الى دنقلة أو الدبة ، ثم تصل الى المحس فأسيوط ، وتعرف الرابعة والأخيرة بقافلة دارفور والتى كانت تبدأ رحلتها من كوبى عبر صحراء ليبيا ثم تصل فى النهاية الى اسيوط (طريق درب الأربعين) .

كانت كل قافلة من هذه القوافل تحمل معها عددا كبيرا من العبيد ، فقد ذكر جرى Gray فى كتابه تاريخ السودان الجنوبى فى صفحة خمسة أن جملة العبيد التى كانت تصل من سنار الى مصر فى السنة تبلغ حوالى ٥٠٠ عبد ، وقد تضاعف حجم هذا العدد فى نهاية القرن الثامن عشر وأصبح يتراوح فيما بين ٥٠٠٠ ، ٦٠٠٠ عبد فى السنة وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء العبيد من البنات ، لانهن كن مطلوبات للعمل فى المنازل وكان من

= ويذكر كلوت بك أن الخصى يتميز بأنه أمرد سليب اللحية والشـــارب وفى صوته خشونة ، ويميل الى الأذى والخوف وسرعة الغضب ، ويميل البعض منهم الى مظاهر الصلاح والتقوى .

انظر كتاب لمحة عامة الى مصر ، تأليف أ . ب كلوت بك ، تعريب محمد مسعود . صفحة ٦٢٨ ــ ٦٣٣ .

(٤٠) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٣٩٠ ــ صادر ، ديوان المعاونة وثيقة ١٩٢ فى شوال سنة ١٢٦١ الموافق ١٨٤٥م .

النادر ان تجد منزلا يخلو من جارية ، ولكن من الملاحظ أن هذا العدد قد تناقص بصورة كبيرة مع بداية القرن التاسع عشر ، ربما يرجع ذلك الى أحداث السودان الداخلية ، التى أدت الى اضطراب الأمن وعدم الاستقرار ، وما نجم عن ذلك من تدهور فى حركة التجارة بين مصر والسودان (٤١) .

وكان لانتشار تجارة الرقيق فى افريقيا وعلى نطاق واسع ، اثره الفعال على محمد على ، الذى بادر بمجرد وصول قواته الى السودان ، باستغلال هذه الثروة لحسابه الخاص وادلل على ذلك بقوله مخاطبا ناظر مصلحة أسوان ما نصه :

« حاصل القول يا ولدى ، أن المصلحة تقتضى المتاجرة مع جلابى دارفور ، وذلك بمبادلة العبيد بالجوارى » . (٤٢)

استمر محمد على فى استغلال تجارة الرق الأسود ، منذ ان دخلت قواته الى السودان ، وحتى عام ١٨٤٠ م ، ففى هذا العام اصبح فى غير حاجة الى العبيد ، ويمكن تعليل ذلك بعدة عوامل منها ابرام معاهدة لندن بين تركيا من ناحية ، وبين الدول الأوربية (انجلترا والروسيا وبروسيا والنمسا) من ناحية اخرى ، فقد ادى عقد هذه المعاهدة الى نقطتين أساسيتين ، أولهما تخلى محمد على عن ممتلكاته فى كل من سوريا ، وجزيرة العرب ، وكريت واقليم ادنة ، وثانيهما تحديد عدد جيشه بثمانية عشر الفا من الجنود فقط (٤٣) ومنها أيضا أن محمد على الغى نظام الاحتكار الاقتصادى الذى كان سائدا فى مصر وملحقاتها من البلاد الأخرى . (٤٤)

ولقد ادت سياسة الغاء الاحتكار الاقتصادى الى زيادة نشاط التجار الأوربيين والعرب فى السودان فكان من التجار الأوربيين المالطى ديبونى

---

(٤١) Richard Gray : op. cit. P. 5.

(٤٢) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ١٠ معية تركى ، وثيقة ٢١٩ فى ٢٣ رجب سنة ١٢٣٧هـ الموافق ١٨٢١م .

(٤٣) عبد الرحمن الرافعى ، المصدر السابق ص٣٣٤ .

(٤٤) د/ أحمد احمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى ، ص ٤٤

Debone وكل من الفرنسيان ملزاك Melzak الذى انتشرت مستودعاته (زرائبه) على طول نهر الرهل وبحر الغزال ، وبارثلمى Barthlemy ، وكان من التجار العرب السيد احمد العقاد ، وشريكه موسى العقاد ، وعلى أبو عمورى ومحجوب البصيلى وغطاس القبطى ، وكوتشك على التركى ، وادريس أبتر الدنقلاوى (٤٥) .

عمل هؤلاء التجار سواء اكانوا من الاوربيين ام العرب فى تجارة الرق التى كانت منتشرة فى السودان على نطاق واسع ، وزاد نشاطهم ، بعد الكشف عن منابع النيل الابيض فى الفترة ما بين ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ م .

ونظرا لازدهار هذه التجارة فى هذه الفترة قرر محمد على ، أن يفرض عليها رسوما جمركية ، تراوحت قيمتها فيما بين ٣٥٠ قرشا بالنسبة للعبد السودانى ، ٥٠٠ قرشا بالنسبة للعبد الحبشى (٤٦) وكان قد تقرر اعفاء الأطفال نهائيا من هذه الرسوم ، بينما تقرر أخذ ضريبة على الأولاد ، تراوحت قيمتها فيما بين ٢٥٠ قرشا بالنسبة للعبد الحبشى ، ١٧٥ قرشا بالنسبة للعبد السودانى (٤٧) والى جانب ذلك طلب محمد على من حكمدار السودان أن يحصل على قيمة الضريبة المقررة على القبائل السودانية ، فى صورة ابقار بدلا من الحصول عليها فى صورة عبيد ، وقد حدد قيمة هذه الضريبة بعشرة ابقار بدلا من العبد الواحد ، الذى تبلغ قيمته ٥٠٠ قرشا (٤٨) .

زيادة على ذلك فان تجارة الرق فى افريقيا واجهت معارضة من جانب الدول الاوربية ، وبصفة خاصة من جانب بريطانيا ، فربما يرجع ذلك الى سببين رئيسيين أولهما ، أن هذه الدول كانت قد الغت بالفعل تجارة الرق

---

(٤٥) د/ محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٤٦) محافظ ابحاث السودان — دفتر ١٩٧ معاونة اقاليم ، وثيقة ١٣٩ فى ١٩ محرم سنة ١٢٥٨هـ الموافق ١٨٤٢م .

(٤٧) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٦١ معاونة ايرادات ، وثيقة ١٣٩ فى ٣ ربيع أول سنة ١٢٥٨هـ الموافق ١٨٤٢م .

(٤٨) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٤٤٣ ، وارد معية سنية ، وثيقة ١٥٧ فى ١٨ رجب سنة ١٢٦٣ الموافق ١٨٤٦م .

فى بلدانها ، وثانيهما كان يتمثل فيما نقله السياح والرحالة والمغامرون الأوربيون الى دولهم عن المعاملة السيئة التى كان يتعرض لها هؤلاء العبيد من جانب تجار الرق وخاصة اثناء عمليات القنص .

تزعمت بريطانيا حركة وقف تجارة الرق فى افريقيا بعد أن قضى عليها فى أوربا (٤٩) مع انه لم يكن لها اى نفوذ يذكر فى افريقيا فى ذلك الوقت ، فطلبت من محمد على أن يقوم بهذا العمل لما له من نفوذ فى هذه القارة ، فأرسلت له عام ١٨٣٧م عضو البرلمان البريطانى جون بورنج Bouring

---

٤٩ — ظهرت فى أوربا المناداة بوقف تجارة الرقيق ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، وكان من أشهر المنادين بها المستر جرانفيل شرب . الذى ظل ينادى بوقف هذه التجارة مدة نصف قرن من الزمن وكان يعاونه فى هذه المهمة الرجال الانجليين المعروفين باسم الكويكرز أى (الراجفون) ومن بعد جرانفل نادى بها المستر كلاركس الذى انضم اليه ويلبر فرس ، وكان الهدف من دعوتهما هو حمل البرلمان البريطانى على استصدار قانون ببطلان الرق . وفى يونيو عام ١٧٨٧م تأسست لجنة مؤلفة من ١٢ عضوا كان معظمهم من الكويكرز وذلك للمطالبة بوقف الرق ايضا ، وفى العام التالى لتأسيسها طلبت من البرلمان الانجليزى أن يستصدر قانونا يحرم الرق وقد نجحت فى ذلك عند ما حصل ويلبر فرس احد أعضائها على هذا القانون عام ١٧٨٨ م وقد حذا البرلمان الفرنسى حذو الانجليزى ، فاستصدر قانونا يقضى بتحريم الرق عام ١٨١٥ ، ومن قبل ذلك كانت الجمعية الدستورية الفرنسية ، قد أصدرت قانونا فى ١٥ مايو عام ١٧٩١ يقضى بمساواة جميع البشر فى الحقوق الشخصية والمدنية والاجتماعية وقد أصدر مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ م قرارا يقضى بمنع الاتجار فى الرقيق ، وكذلك قضت قرارات مؤتمرى كل من اكس لاشابل الذى انعقد عام ١٨١٨م وفيرونا الذى انعقد عام ١٨٢٢م بوقف تجارة الرقيق ، وفى عام ١٨٢٣ تأسست جمعية انجلترا تحت رئاسة كل من فلاركس وويلبرفرس وبكستن ، وكان الغرض من انشائها هو العمل على وقف تجارة الرقيق ، تدريجيا فى الممتلكات الانجليزية ، ولكن جماعة الكويكرز اليصابات جريك ، اعترضت على مبدأ الالغاء التدريجى ، وطالبت بأن يتم الالغاء بصورة سريعة . ونتيجة لهذا الضغط من جانب هذه الجماعة ، اضطر البرلمان

الذى طلب منه ضرورة العمل على الغاء تجارة الرق فى السودان واخبره بأن ضباطه يقومون بتوزيع الرقيق على الجنود كمرتبات ، فقال له محمد على انه كان يعلم بأن ضباطه يقومون بالاتجار فى الرق ، مع أنه غير موافق على مثل هذه التصرفات ، ووعد العضو البريطانى فى نهاية اللقاء بأنه سوف يتخذ من الاجراءات ما يكفل وقف هذه التجارة ، وبالفعل بادر بالكتابة الى حكمدار السودان ، يخبره بقوله :

« لما كان من واضـــح الأمور مبلغ استهجان هذا النظام لدى الدولة المشار اليها (بريطانيا) فقد أوجب الفاؤه مراعاة لما بيننا وبين هذه الدولة من روابط الصداقة المتينة ، وعليه فيجب أن تكفوا فيما بعد من اعطاء العبيد والجوارى ، بدلا من العلوفة ، واما أن قلتم أن الأخذ بهذا النظام يعود على الميرى بفائدة ، فأقول لكم دعوا هذه الفائدة فى جانب ، فأنا مستعد لقبول الضرر والخسارة فى هـــذا العمل ، ولذلك أطلب اليكم وبصـــورة قطعية أن تلغوا هذا النظام المذكور » (٥٠) واضاف محمد على أيضا فى خطاب آخر قوله :

« نحن نلفت نظركم الى وجوب عدم بيع هؤلاء العبيد ، بأى حال من الاحوال ، وانما عليكم أن تعملوا على اعادتهم الى أوطانهم ، لأن بيعهم يثير ثائرة الافرنج ، ويجعلهم يحملون علينا من جديد ، فاياكم وبيعهم ، فلو

= الانجليزى أن يصدر قانونا عام ١٨٣٢م ، حدد بمقتضاه أن يوم أول أغسطس عام ١٨٣٤م هو يوم تحرير جميع الأرقاء فى كافة الممتلكات البريطانية ، وقد خصص البرلمان الانجليزى مبلغ عشرين مليونا من الجنيهات ، لدفع تعويضات الى الأشخاص الذين سوف يفقدون عبيدهم نتيجة لهذا القرار . وعند حلول عام ١٨٤١م كانت بريطانيا ، قد حررت من الرقيق ما يقرب من ١٢ مليون من العبيد فى املاكها فى الهند الشرقية ، وحذا حذو بريطانيا كل من السويد التى اطلقت الرقيق فى الفترة ما بين عامى ١٨٤٦ ــ ١٨٤٧م وفرنسا والدنمرك فى عام ١٨٤٨م ، وهولندا فى عام ١٨٦٢ ، ثم تلتهم أسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية .
أنظر كتاب (تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل) للاستاذ الياس الايوبى صفحة ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

(٥٠) د/مكى شبيكه ــ المصدر السابق ، ص١١٩

فعلتم ذلك ، لما قبلنا منكم اى عذر واذا كنتم قد بعتم أحدهم قبل صدور أمرنا هذا عليكم ان تعملوا على استرداده ، ولا بد من تعيين عقوبة صارمة لكل من يقدم على بيع اى عبد منهم » . (٥١)

لما علمت جمعية الغاء الرق The Anti Slavery Society بالاجراءات التى اتخذها محمد على أرسلت اليه ريتشارد مادن Richard Maden احد اعضاء هذه الجمعية لكى يقوم بتقديم الشكر الى محمد على ، وكان برفقة هذا المندوب اثناء هذه المقابلة ، هودجز Hodges القنصل البريطانى فى مصر ، وكان محمد على قد اخبره بأن العمل على الغاء الرق دفعة واحدة يعتبر من الأمور الصعبة ، لانه اصبح عادة متأصلة فى كيان الاسر الاجتماعى حتى أنهم اذا لم يجدوا الرقيق متوفرا فى الأسواق بادروا بالشكوى (٥٢) .

لم تقف جمعية الغاء الرق من تجارة الرقيق موقف اللامبالاة ، بل ارسلت عام ١٨٤٢م خطابا الى محمد على تحثه فيه على ضرورة العمل السريع والجاد لوقف هذه التجارة (٥٣) . وبعد أن تسلم محمد على خطاب الجمعيه اصدر تعليماته من جديد الى حكمدار السودان والتى كانت تقضى بالعمل الجاد على وقف تجارة الرق بكل صورها ، زيادة على ذلك فانه عين على كل مديرية من مديريات السودان مديرا برتبة باشا وذلك ليقوم كل منهم بمتابعة العمل على الغاء الرق (٥٤) .

يبدو أن الاجراءات التى اتخذها محمد على ضد تجارة الرق لم تأت بالنتيجة المرجوة مما اضطره الى أن يكتب الى حكمدار السودان ليذكره بما سبق أن اخبره به ، وذلك بقوله :

« سبق منى أن بينت لك أن الاتجار فى الرقيق بيعا وشراءا ، ممنوع فاهجم على التجار ، وكف أيديهم عن الأفعال التى يفعلونها وأدبهم ، ولا تأخذ

---

(٥١) د/ مكى شبيكه ــ نفس المصدر ص٤٧٩ .

(٥٢) د/ مكى شبيكه ــ نفس المصدر ص٤٧٩ .

(٥٣) د/ محمد فؤاد شكرى : المصدر السابق ص ١٦٤ .

(٥٤) محافظ السودان ــ دفتر ١٠ عابدين وثيقة ١٢١ ص١٧ عام ١٨٤٤م

منهم اسيرا واحدا فى أثناء الغارة عليهم بل خذ ما يصلح منهم للجندية ، وان كنت فى غير حاجة اليهم فارسلهم الى المديريات الأخرى ، ثم أرجع الكبار فى السن وكذلك الصغار ، وأيضا ضعاف الأجسام الى مساكنهم»(٥٥).

من الملاحظ أن محمد على كان جادا فى العمل على وقف تجارة الرق فى افريقيا والدليل على ذلك ما اتخذه من اجراءات عديدة ، كان يـ هدف من ورائها بطبيعة الحال الى الغاء هذه التجارة ، زيادة على ذلك فانه لم يعد فى حاجة الى العبيد وخاصة بعد أن حدد عدد الجيش بثمانية عشر الفا من الجنود وبعد ان فشلت النهضة الصناعية فى مصر بسبب منافسة الصـــناعات الأوربية لها (٥٦) .

---

(٥٥) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٣٩٣ صادر ديوان المعية ، وثيقة ٧٦ فى ٢٨ رمضان سنة ١٢٦١ الموافق ١٨٤٥م .

(٥٦) د/ أحمد أحمد الحته : تاريخ مصر الاقتصـــادى فى القرن ١٩ ، المصـــدر السابق ، ص ٤٣ .

الفصل الثانى

الثروة الحيوانية

تعتبر الثروة الحيوانية فى أى بلد من بلدان العالم ، العنصر الأساسى فى ثروة هذا البلد القومية ، بل ربما تتفوق على غيرها من باقى الثروات الأخرى ، كالثروة الزراعية مثلا أو الصناعية . ويرجع ذلك لانها كانت ولا زالت تمد الانسان بما يحتاجه من مواد غذائية كبيرة الفائدة ، تتمثل فى اللبن ومشتقاته ، وفى اللحوم والشحومات والجلود ، ، زيادة على ذلك فانها تساهم بقسط وافر فى كافة الأعمال الزراعية ، وبصفة خاصة فى معظم بلدان العالم النامى ، على الرغم من التقدم العلمى الملحوظ فى وسائل ميكنة الزراعة التى تسود بلاد العالم المتحضر .

١ ــ الماشـــية :

ادرك محمد على هذه الأهمية بالنسبة للثروة الحيوانية وخاصة بعد أن تعرضت الماشية المصرية الى التناقص ، الذى من المرجح أن يكون السبب المباشر فى حدوثه هو كثرة الحروب التى خاضتها مصر ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، وحتى أوائل القرن التاسع عشر ، أى منذ عام ١٧٩٨ وحتى عام ١٨١٩ ؛ فقد خاضت مصر خلال هذه الفترة عدة حروب منها الحرب التى خاضتها ضد الحملة الفرنسية فى الفترة ما بين ١٧٩٨م وحتى ١٨٠١م ، والحرب التى خاضتها ضد حملة فريزر عام ١٨٠٧ والحرب التى خاضتها فى نفس السنة ضد المماليك ، والتى بها تخلص محمد على من قوتهم ومن زعيمهم محمد بك الالفى ، أحد قادتهم البارزين ، والحرب التى خاضتها ضد الوهابيين فى الفترة ما بين ١٨١١ وحتى عام ١٨١٩م (١) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ــ المصدر السابق ، صص ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٦ ، ٣٧ .

من المعروف ان الناس فى اثناء الحرب لايتمكنوا من ممارسة اعمالهم على الوجه الأكمل ، بل نجدهم يكرسون جهودهم نحو مساندة جيوشهم سواء اكان ذلك عن طريق تزويد هذه الجيوش بما تحتاج اليه من مؤن أم بالتطوع فى صفوفها وترك الأعمال الأخرى ، الى ما بعد الحرب ، وفى الحالتين، فان ذلك لا يؤثر على الثروة الحيوانية وحدها ، بل يصيب أيضا باقى القطاعات الاقتصادية الأخرى بالشلل . زيادة على ذلك فان الدولة أثناء الحرب تستهلك كميات كبيرة من اللحوم اللازمة للجند ، وهذا يؤثر بالتالى على حجم الثروة الحيوانية ، من حيث التناقص فى أعدادها ، بالاضافة الى ذلك فان الماشية المصرية كانت قد تعرضت فى عام ١٨٢٤م الى الوبء الذى قضى على أعداد كبيرة منها ، والى القحط الذى أصاب المراعى المصريه نتيجة للجفاف الشديد الذى ساد البلاد (٢) ونتيجة لهذه الظروف اضطر محمد على الى أن يبحث عن مصدر آخر ، يجلب منه الأعداد اللازمة من الماشية كى يعوض بها مافقدته الماشية المصرية من نقص ، وبعد البحث والدراسة قرر أن يحصل على احتياجاته من الثروة الحيوانية من السودان الغنى بثروته الحيوانية (٣) الممثلة فى الأبقار وغيرها من الحيوانات الأخرى .

---

(٢) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٢٠ وثيقة ٣٨١ فى ٢١ شوال سنة (١٢٤١ الموافق ١٨٢٥م) .

(٣) من المعروف أن السودان غنى بثروته الحيوانية التى تتمثل فى الأبقار والتى توجد بكثرة فى جنوب السودان وخاصة فى المنطقة التى تمتد حتى خط عرض ٣ شمال خط الاستواء ، وكان للابقار مكانة مرموقة لدى القبائل السودانية ، فكانت مظهرا من مظاهر الغنى والجاه ، فبكثرة عددها كان يتفاخر القوم ويتباهون ، وكانت أداة للتعامل ، فكانت تدفع بها المهور عند الزواج ، وكانت تقدم منها الدية عند القتل ، وكانت تقرب منها القرابين للالهة فى المناطق الوثنية واشهر القبائل التى تقتنى الأبقار هى قبائل البقارة والشلك والدنكا والنوير والرزيقات وغيرها كثيرون ، والى جانب الأبقار وجدت الابل التى توجد بكثرة فى السودان الشمالى ، وكان لايمكنها أن تعيش فى السودان الجنوبى ، وذلك بسبب انتشار الذباب الذى تسبب لدغاته مرض الغفار ، الذى يصيب الجمال بالفناء ، وكان لايمكن للجمال أن تتعدى خط عرض ١٨ شمال خط الاستواء ، وذلك لقلة العشب فى المناطق الشمالية لهذا الخط،

عندئذ كتب خطابا الى حاكم السودان يطلب منه ان يرسل له ٤٠٠٠ من الثيران السودانية ، وأوصاه أن يهتم بهذا المطلب ويتضح ذلك من خطابه الذى جاء فيـــه ما نصـــه :

« بسبب الشراقى (القحط) الذى حصل لحكمةيعلمها الله تعالى فى الاقاليم المصرية بالعام الماضى (١٨٢٤م) قلت المواشى كالثيران والجاموس والغنم والابقار ، وهزل الموجود منها ، فنرغب فى زيادتها لتموين الســكان وجماعة دائرتنا ، لتسخيرها فى السواقى وسائر الاعمال المؤدية الى عمران البلاد ، ويلزم ارسال ٤٠٠٠ ثور وعليك أن تبذل غايتك باعداد الوسائل التى تضمن وصولهم حتى لا تتلف فى الطريق » (٤) .

لم يكتف محمد على بارسال هذا الخطاب الى حاكم السودان بل ، نجده يتخذ من جانبه عدة اجراءات تكفل له جلب أكبر عدد ممكن من هذه الماشية، وكان من أول هذه الاجراءات التى اتخذها محمد على هو أنه أصدر قرارا يقضى بتعيين واحد وعشرين جنديا من جنود الجهادية تحت رئاسة ضابط برتبة ملازم ثانى (٥) وذلك للقيام بمهمة جلب الماشية من السودان ومن الواضح

= وهذا ما لاتتحمله الجمال ، ومن اشهر القبائل التى تقتنى الابل قبائل البجا، التى تعيش فى شرق النيل ، وقبائل الكبابيش التى تعيش فى غربه . لم تقتصر الحيوانات على الأبقار والابل فحسب بل يوجد أيضا الجاموس البرى الذى يعيش بكثرة فى منطقة النيل الأزرق ومنطقة نهر السوباط وتوجد أيضا الاغنام والماعز وخاصة فى السودان ، الشمالى ، زيادة على ذلك فا نالسودان غنى بالحيوانات البرية العشبية ، وغيرها من الحيوانات البرية المفترسة ، وكذلك غنى بأنواع عديدة من الطيور المختلفة الأشكال والالوان . انظر كتاب (السودان) تأليف د. محمد محمود الصياد ، د. محمد عبد الغنى سعودى صفحة ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٨ .

(٤) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٢٠ معية تركى وثيقة ٣٨١ فى ٢١ شـــوال ســـنة ١٢٤١ الموافق ١٨٢٥م .

(٥) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٢٠ معية تركى ــ وثيقة ٤٠٦ فى ٢٣ الحجة ســـنة ١٢٤١ الموافق ١٨٢٥م .

أن هذا العدد كان قليلا ، ولا يتناسب مع أعداد الماشية المطلوبة ولكن ربما كان هذا العدد بمثابة مقدمة ، لبقية الأفراد الذين سوف يعينون للعمل فى جلب الماشية السودانية ، والذين سوف يخصص لكل منهم عمله الخاص ، فمنهم من كان سيعمل فى فرز الماشية وكان هذا العمل يقوم به الضباط والأطباء البيطريون ، وكان منهم من سيعمل فى سوقها والبعض الآخر يعمل فى تقديم العلف اليها . ويبدو أن محمدا عليا ارسل الى السودان فيما بعد بقية الأفراد المكلفين بهـــذا العمـــل .

ولكى يتأكد محمد على من وصول الماشية السودانية كاملة غير منقوصة طلب من حاكم السودان ، أن يقوم بوشم (٦) الماشية التى ترسل من السودان الى مصر ، حتى لا يتمكن السواقون والحراس من تغيير أو بيع احداها فى اثناء الطريق (٧) زيادة على ذلك فانه أمر باعداد عدد من الشون على طول

---

٦ ــ كانت عملية الوشم هذه معروفة لدى جميع القبائل السودانية ، فكانت كل قبيلة تقوم بوشم حيواناتها من ابل وماشية ، بطريقة معينـــة حتى يمكن لكل منها ان تتعرف على حيواناتها بسهولة ، عندما تختلط بحيوانات القبائل الأخرى ، وكانت عملية الوشم هذه تتم بواسطة قطعة من الحديد ، كانت تحمى فى النار ثم يكوى بها الحيوان المراد وشمه ، اما على أحد فخديه واما على عنقه ، وكانت عملية الوشم هذه تأخذ أشكالا عدة ، فمنها مايأخذ شكل شرطة مستطيلة أوشكل شرطتين متوازيتين ، ومنها مايأخذ شكل دائرة ، ولازالت هذه العادة تستخدم فى السودان حتى اليوم ، ولم يقتصر الوشم على الحيوانات ، بل شمل ايضا الأشخاص ، فكانت كل قبيلة تقوم بوشم أبنائها على الوجه ، وقد أخذ وشم الأبناء أشكالا مختلفة ، فاما أن يكون الوشم على شكل شرط راسية ومستقيمة ، او على شكل شرط أفقية . ويبدو أن الغرض من ممارسة هذه العادة تمييز أفراد القبيلة عن بقية القبائل الأخرى . وهناك بعض القبائل مثل قبائل الشلك والدنكا اتخذت لنفسها بعض العادات الأخرى ، مثل خلع الأربع قواطع الامامية من الفك الاعلى ، بينما قبائل النوبر ، كانت تخلع الاربع قواطع الســـفلى .

(٧) محفظة ٥ قرارات مجلس ملكية وجهادية ، وثيقة ٨ فى ٢٠ القعدة ســـنة ١٢٤٣ الموافق ١٨٢٧م .

الطريق الذى تسلكه الماشية فى رحلتها ، وكان الغرض من انشائها هو ان يخزن فيها العلف اللازم للماشية الذى كان يتمثل فى التبن والقصل والقش والحبوب ، وكانت الماشية السودانية لا تميل الى تناول الفول والذرة ، ويبدو انها كانت لم تتعود على تناولها من قبل ولكنها كانت تميل الى تناول باقى الأعلاف السابق ذكرها ومن المرجح أن تكون قد تعودت على تناول الحبوب بعد مجيئها الى مصر وقد حدد سعر حمل التبن الذى يزن ٢٠٠ اقه بسعر ٥ر٤ قرشا وحدد سعر حمل البوص الذى يزن نفس الكمية باثنين ونصف قرشا .

ولكن لما عرضت قيمة هذا السعر على محرم أغا الذى كان مسئولا عن ديوان الماشية استكثر هذه الأثمان ، وطلب أن يكون ثمن حمل التبن مائة فضة ، وثمن الحمل من البوص ستون فضة ، ولما عرض الأمر على محمد على ، افاد بأنه اذا كان السعر الأول يتضمن النقل والمشال فهو مناسب لحاجاتنا ، واما اذا كان لايتضمنها فهو غير مناسب ، وعندئذ يكون السعر الذى حدده محرم أغا هو الأنسب (٨) .

بعد وصول أعداد من الماشية السودانية الى مصر تلاحظ أنها تضم بينها بعض الماشية الضعيفة والهزيلة ، بل والمريضة أيضا ، يبدو انه لم تجر عليها عمليات الفحص الدقيقة لاختيار الأحسن وترك الأردأ . ولكن لما علم محمد على بذلك قرر تعيين عدد من الأطباء البيطريين فى كل من كردفان وسنار والتاكه وبربر واقليم الجعليين وبلدة الدبة (٩) وذلك للقيام بمهمة فحص الماشية السودانية قبل مجيئها الى مصروذلك لاختيار الأصلح منها ، وترك المريضة والمسنة والضعيفة ، فمن المؤكد أن يكون الأطباء البيطريون أجدر من غيرهم فى القيام بهذه المهمة ، وكان محمد على قد اشترط أن لاتزيد مدة خدمة هؤلاء الأطباء فى السودان عن سنتين (١٠) .

---

(٨) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٧١ معية تركى — وثيقة ٤٣٦ فى ١٥ الحجة سنة ١٢٥١ الموافق سنة ١٨٣٥م .

(٩) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٢٠ عابدين ، وثيقة ٣٥٥ فى ٢٣ القعدة سنة ١٢٥٢ الموافق ١٨٣٦م .

(١٠) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٧٩ معية تركى وثيقة ٧٧٧ فى ٢٣ القعدة — سنة ١٢٥٢ الموافق ١٨٣٦م .

ومن المرجح ان يرجع السبب فى ذلك الى عدة عوامل منها ان محمدا عليا كان يخشى ان يقوم هؤلاء الأطباء بعمل علاقات صداقة مع المديرين ، او التجار او غيرهم من الوطنيين فيؤدى ذلك بالتالى الى ان يهملوا فى عملهم ، ومنها انه كان يخشى عليهم ايضا ان يتعرضوا للأمراض الخطيرة التى تحدث ، نتيجة لقسوة مناخ السودان .

ومن الواضح ان يكون محمد على قد ارسل هؤلاء الأطباء البيطريين الى السودان ، كى يقضى على ظاهرة مجىء الماشية الضعيفة ، التى اتخذ السواقون منها ذريعة للكسب غير المشروع . فكانوا يبيعونها الى سكان البلاد التى يمرون من خلالها بأثمان بخسة ، لاتتعدى ٢٥ ، ٣٠ ، ٤٥ قرشا بالنسبة للراس الواحد (١١) وبالطبع كانوا يبيعون الماشية السليمة الى جانب الضعيفة. وكان هؤلاء السواقون يستندون فى بيعهم لهذه الماشية الى اسباب واهية تتمثل فى عدم قدرتها على مواصلة المسير وملاحقة باقى القطيع . لذلك كان محمد على يتابع الماشية القادمة من السودان عن كثب ، حتى يطمئن بنفسه على وصولها سليمة فكان يخرج فى بعض الأحيان لملاقاتها فى الطريق ، قبل وصولها الى الجيزة وقد تصادف فى مرة من المرات ان رأى فى أحد القطعان القادمة الى مصر ثورا مريضا لايقوى على المسير ، فأمر على الفور مأمور قسم الواسطى بأن يأخذ هذا الثور ويسلمه الى احد مشايخ البلاد كى يعتنى به حتى تتحسن حالته ، عندئذ يرسل هذا الثور بالتالى الى الجيزة ، وطلب محمد على ايضا انه فى حالة نفوق الثور يسلخ جلده ويرسل الى ديوان الجفالق ، وفى حالة ذبحه يباع لحمه ويتحصل ثمنه ويرسل مع جلده الى ديوان الجفالق ايضا (١٢)

كانت الماشية السودانية اثناء رحلتها الطويلة من السودان الى مصر تتعرض لبعض الأضرار ، التى تتمثل فى تآكل اظافرها ، والتى كانت تعوقها فى بعض الأحيان عن مواصلة المسير ، مما يشجع السواقون على بيعها اثناء الطريق حتى لا تعوق تقدم القطيع ولكن لما علم محمد على بذلك امر بوضع قضع

---

(١١) محفظة ٤ ملكية ، وثيقة ٢٦٤ فى ٢٥ ربيع اول سنة ١٢٥٢ الموافق ١٨٣٦م .

(١٢) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٨٥ معية تركى وثيقة ١١٠ فى شهر القعدة سنة ١٢٥٢هـ الموافق ١٨٣٦م .

من الليف حول أظلاف الماشية كى تحميها من التآكل (١٣) وترجع أسباب تآكل أظلاف الماشية الى طول المسافة التى كانت تقطعها ، والى المسير فى بعض المناطق الحصوية وكذلك الى المسير مسافات طويلة دون توقف فى المحطات المخصصة لراحة الماشية .

أدى مسير الماشية مسافات طويلة الى اصابتها بالضعف والهزال فاضطر محمد على ازاء هذا الى أن يصدر تعليماته ببيع المريضة منها والتى تلد فى الطريق حتى لا تنفق ، وحتى لا تصاب الدولة بالخسارة زيادة على ذلك فانه قرر أن يمنح مكافآت مالية مجزية للافراد الذين يقومون بسوق الماشية ، كى يجتهدوا فى خدمتها والمحافظة عليها ، فتقرر أن يصرف سبعة قروش للفرد ، الذى يأتى بالماشية من كردفان ، ٦ ستة قروش للفرد الذى يأتى بها من سنار ، ٤ قروش للفرد الذى يأتى بها من دنقلة ، وقد صدرت تعليماته الى مديرى المديريات بأن يصرفوا هذه المبالغ الى السواقين من خزائن مديرياتهم .

يبدو أن هذه الاجراءات السابقة لم تؤد الغرض المطلوب منها فاضطر محمد على أن يلجأ الى مدرسة الطب البيطرى ، كى تقدم له بعض الدراسات العلمية ، التى يمكن بواسطتها التغلب على كافة العقبات والمشاكل ، التى تعترض وصول الأعداد المطلوبة من الماشية السودانية ، وبالفعل قدمت له هذه المدرسة دراسة خاصة ، تضمنت تقسيم الماشية السودانية الى قسمين الأول منها ويضم الماشية المصابة بالأمراض والمسنة والعرجاء ، وقد تقرر ضرورة بيع السمينة منها أو ذبحها ومعالجة الهزيلة والعناية بها حتى تسمن وتباع بالتالى ، ويضم القسم الثانى الماشية الصغيرة والكبيرة فى السن معا ، وقد تقرر بالنسبة للماشية الصغيرة السن أن تذبح أو تباع ، واما الكبيرة فتقرر أن توزع على المديريات المحتاجة لها (١٤) .

لم يكتف محمد على بهذه الدراسة التى قدمتها مدرسة الطب البيطرى ، بل نجده يقرر أن يحسن السلالة السودانية ، وذلك بتنزيه الثيران المصرية

---

(١٣) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٨٤ معية تركى ، وثيقة ٣٠٨ فى ١٤ صفر سنة ١٢٥٣هـ الموافق ١٨٣٧م .

(١٤) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٢٨٤ معاونة ملكية — وثيقة ٦٤٠ فى ٢٤ جماد ثان ١٢٥٧ الموافق ١٨٤١م .

(البلدية) مع الأبقار السودانية (١٥) هادفا الى زيادة وتحسين الثروة الحيـــوانية فى مصر .

وعندما كانت الماشية السودانية تتعرض للوباء أثناء قدومها الى مصر ، كان محمد على يأمر بوقف قدومها بحيث تبقى فى المناطق التى وصلت اليها وتستمر فيها مدة من الزمن ، حتى تخف حدة هذا المرض (١٦) وكانت أثناء هذه المدة تطلق فى مزارع البرسيم الموجودة فى اسنا بالاضافة الى تزويدها ببعض الأعلاف الأخرى كالتبن والفول (١٧) وبعد أن يتم شفاؤها تستأنف المسير الى مصر وكان محمد على لايتهاون مع المسئولين عن جلب الماشـــية الســـــودانية (١٨) .

زيادة على ذلك فان محمدا عليا ، أمر باعفاء الماشية السودانية من كافة الرسوم الجمركية ، حتى يمكن له جلب أكبر عدد ممكن منها (١٩) لأن

---

(١٥) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٢٢٤ معاونة جمالق ، وثيقة ٥١٠ فى ١٣ جماد ثان سنة ١٢٥٧هـ الموافق ١٨٤١م .

(١٦) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٢٠٩ معاونة اقاليم وثيقة ١٤٦ فى ١١ صفر عام ١٢٥٩ الموافق سنة ١٨٤٣م .

(١٧) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٢٠٩ معاونة اقاليم وثيقة ٣٢٠ فى ٢٠ ربيع اول سنة ١٢٥٩ الموافق سنة ١٨٤٣م .

(١٨) يبدو أن وقف جلب الماشية فى فترة انتشار المرض جعل البلاد فى حاجة شديدة اليها ، مما اضطر محمد على الى أن يرسل من طرفه الى السودان مأمور جديد لجلب الماشية هو القائمقام عيسى افندى وكان بصحبته الملازم أول احمد عونى ، كى يقوما معا بجلب الماشية السودانية الى مصر من جديد ، ولكن بعد ان وصلا الى اسوان رفض الملازم احمد عونى الذهاب الى السودان ، فاضطر عيسى افندى أن يخبر محمد على بموقف هذا الضابط فبمجرد أن علم محمد على بذلك أمر برفته من الخدمة وتجريده من رتبته العســـــكرية .

انظر دفتر ٢٨٩ شـــورى المعاونة ، وثيقة رقم ٨٨٢ فى ٣ صـــفر سنة ١٢٥٩ الموافق ١٨٤٣م .

(١٩) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٣٦٩ معية تركى وثيقة ٤١٠٨ فى ٢٣ رجب ســـنة ١٢٥٩ الموافق ١٨٤٣م .

زيادة عددها سوف يتيح للفلاحين الحصول على الاعداد اللازمة لهم من هذه الماشية ، وباسعار مناسبة ، بالاضافة الى ذلك فان الغاء الرسوم يؤدى الى سرعة وصولها الى مصر .

كان محمد على يتابع باهتمام اعداد الماشية التى تصل الى مصر وذلك من واقع الكشوف التى كانت تحرر بمعرفة ضباط المحطات ، الذين كانوا يرسلونها كل خمسة عشر يوما (٢٠) .

انشا محمد على ثلاث معالف للماشية السودانية يسع الواحد منها ٤٠٠٠ راسا من الماشية فى كل من سقارة ، والجيزة وامبابة (٢١) ويبدو أن الغرض من انشاء هذه المعالف كان بمثابة مركز لتقديم العلف والراحة اللازمين للماشية القادمة من السودان ، وكانت أيضا بمثابة اماكن تجميع للماشية ، فمنها كانت توزع على باقى المديريات ، وكان محمد على يحرص على تجديدها من وقت لآخر ، واذكر على سبيل المثال ، أنه عندما علم بأن معلف الجيزة كان فى حاجة الى تجديد مبانيه ، امر ناظر الأبنية باعادة تجديده ، وقد بلغت تكاليفه نحو ٨٢٤ قرشا ، ٣٤ بارة ، ولكن محمد على استكثر هذا المبلغ ، وطلب من أحد المهندسين من ذوى الخبرة فى فن الترميم والبناء ، أن يقوم بمعاينة عمليات التجديد ، وبعد المعاينة تقرر أن تكاليف التجديد لاتتعدى ٥٧٢ قرشا ، ٤ بارة (٢٢) .

كان من المتبع أن تقضى الماشية السودانية بعض الوقت فى معالف الجيزة ، بعدها يبدأ ديوان المواشى فى توزيعها على الجفالق المختلفة ، والتى كانت تتمثل فى جفالق الشرقية (مينا القمح — الصوالح — وعايد — وميت العز —

---

(٢٠) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٣٦٩ معية تركى وثيقة ٤١٦٦ فى ٢٩ رجب سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(٢١) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٨٩ شورى المعاونة ، وثيقة ٢٧١٩ فى ٥ شعبان سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م

(٢٢) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٨٩ شورى المعاونة (نفس الوثيقة) .

وميت حادوس) والغربية (المحلة الكبرى ــ طنطا) ــ والدقهلية نبروه ــ اجا) ، وكفر الشيخ والقليوبية (شبرا ــ قليوب) والفيوم وبنى سويف ، وقنا (أرمنت ــ الرزيقات ــ اسنا) وسوهاج (جرجا) (٢٣) ، وعند وصولها الى الجفالق الجديدة كان ناظر المواشى يشرع فى توزيعها على الفلاحين بأسعار معتدلة ، بحيث لا ترهق كاهلهم ، وكانت هذه الأسعار تتراوح فيما بين ١١٨ ، ٦٠ بارة ، ١٢٠ قرشا للراس الواحد (٢٤) وفيما بعد ارتفع سعر الماشية وأصبح يتراوح فيما بين ١٧٣ ، ٢٠٠ قرشا للراس الواحد ، وربما يرجع هذا الارتفاع فى أسعار هذه الماشية الى زيادة الطلب عليها ومن المرجح أن يكون السبب هو قلة الوارد منها ولم يقتصر توزيعها على الفلاحين فقط ، بل وزعت أيضا على جنود الجهادية الذين كانوا يعملون فى حفر الترع وكذلك وزعت على ضباط الجيش وعلى الفبارك (٢٥) .

لم يغفل محمد على عن متابعة اخبار الأبقار التى تم توزيعها على الفلاحين، فكان يشتد غضبه عندما يعلم بموت اى عدد منها فى أى مديرية من المديريات، فكان يقوم بتأنيب المتسبب فى موت هذه الماشية، ويمكن التدليل على ذلك بقوله الى مدير جفلق الصوالح التابع لمديرية الشرقية ما نصـــه :

« اننا سنضع ملحقا للقانون الخاص بالأهمال فى الماشية بواســطة لجنة الحقانية ، وســتلاقى عقابك بموجب هذا القانون .... انك تميت الماشية باهمالك ولا تفكر فى نفس الوقت فى ان يكون لها انتاج ، كفى أيها الخنزير ، كفى ايها الخنزير اننا ننذرك بوجوب هذا العقاب بشــأن هذه الماشـــية (٢٦) » .

---

(٢٣) أنظر محافظ ابحاث السودان .

(٢٤) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٣٦٩ معية تركى ، وثيقة ١٥١١ فى ٢٥ رمضان ١٢٥٩ هـ الموافق سنة ١٨٤٣ م .

(٢٥) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٣٧٦ صادر ديوان المعية الملكية وبيقة ٤٨٦ فى ٢٧ صفر سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(٢٦) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٣٧٨ معية تركى ، وثيقة ٣٦٤ فى ٢٠ شــوال سنة ١٢٦٠ هـ الموافق ١٨٤٤ م .

لم تقتصر تحذيرات محمد على على مأمورى الجفالق ، وانما شـــملت ايضا مأمورى جلب الماشية ، فكان يحذرهم بين الحين والآخر ، فعندما طلب عيسى افندى مأمور جلب الماشية السودانية ، الاستحقاقات المالية الخاصـــة بالأفراد الذين كانوا بمعيته قال له محمد على ما نصه :

« .... عليك قبل ان تمعن فى الشكوى من عدم صرف الرواتب الخاصة بمن بمعيتك ، أن تذكر أجراءاتك فى العمل الذى عهدنا اليك به ، ولكنك لم تذكر اى شىء عن مهام عملك والا فعاقبتك وخيمة (٢٧) » .

وكذلك لم ينج مأمورو المديريات السودانية من التأنيب ايضا من جانب محمد على ، وخاصة عندما كانوا يتأخرون فى ارسال الماشية المطلوبة من مديرياتهم ، ويتضح ذلك من خطابه الى مدير التاكه الذى جاء فيه :

« ما معنى هذا البطء الدال على الكسل ، وما هى الفائدة من خدماتك اذا تأخر وصول الماشية ، ولم تجن منها البلاد ثمرة ، فماذا يكون موقفك عندما ترسل جميع المديريات المواشى المطلوبة منها ، وتظل أنت على وضعك الحالى ، ألا يحل بك العقاب ، اذ ذاك ، نحن لا نريد بعد الآن ، سماع الأعذار ، فأعمل على ارسال جميع المواشى المطلوبة منك واعرض علينا خبر ذلك ؛ والا علم الله أن حالك سيكون سيئا (٢٨) » .

وفى نفس الوقت طلب محمد على من مأمور جلب المواشى السودانية سليم بك الحجازى ، أن يسرع هو بالتالى فى ارسال الماشية ، على شرط أن تكون من المواشى الثمينة والخالية من الأمراض وفى هذا الصدد يقول له :

« انك لو سعيت الى جمع الماشية السودانية بشىء من الهمة لكانت هذه الماشية قد جمعت وأرسلت الى مصر ، نحن لم نرسلك الى هناك ، لتعمد الى

---

(٢٧) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٣٧٨ معية تركى وثيقة ٣٥٥٦ فى ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٦٠ هـ الموافق ١٨٤٤ م .

(٢٨) سجل رقم ٣٩٦ معية تركى وثيقة ٣٨٤ فى ٢٣ شوال ســـنة ١٢٦٠ هـ الموافق سنة ١٨٤٤ م .

النوم والكسل . وانما لكى تعمل على ارسال المواشى بسرعة ، ثم ما الفائدة من ارسالك الى هناك ، ما دامت المواشى لم تصل الى هنا فى الوقت الملائم، وعليه فنطلب منك ان تبذل قصارى الجهد فى سبيل وصول المواشى الى هنا فى اقرب وقت ممكن ، وعليك أيضا أن تخبرنا بانك قد أرسلت جميع المواشى ، والأفادة ، فأن مصيرك سيكون مرعبا (٢٩) » .

من الملاحظ أن محمد على كان يكرر مطلبه الخاص بضرورة جلب الماشية السمينة القوية والصالحة للعمل الزراعى ، وفى هذا الصدد يخاطب مأمور جلب الماشـــية الســـودانية بقوله

« ان السبب فى ارسالك يا ولدى يا سليم هو أن تنظر انت بعينك المواشى المطلوبة فتختار منها السمينة القوية والصالحة للزراعة ، وترسلها ، فبناء على ذلك انظر كل بقرة وثور على حدة بعينيك وارسله ، ولا تسمح بارسال شىء منها لم تره أنت (٣٠) » .

ذكر سليم بك الحجازى أن السبب فى ضعف الماشية السودانية يرجع الى نقص الأعلاف ، واتهم مدبرى المديريات بعدم ارسال العلف اللازم للماشية، وخاصة من جانب مدير دنقلة ، فاضطر محمد على الى أن يحـــذر مدير دنقلة بقوله :

« أيها الخنزير أتريد اتلاف الماشية جريا وراء احقادك ، ان المصلحة العامة لاتخدم بمثل هذه العدوات والخصومات، فارجع عن غيك ووفر للماشية عليقها فى الوقت المناسب ، والا فستكون أنت المسئول عن تلف يحل بالماشية (٣١) . »

---

(٢٩) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٧٨ معية تركى وثيقة ٣٥١١ فى ٢٣ شـــوال سنة ١٢٦٠ هـ الموافق ١٨٤٤ م .

(٣٠) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٧٦ صادر ديوان المعية ، وثيقة ٧٤٦ فى ١٥ ربيع اول سنة ١٢٦٠ هـ الموافق ١٨٤٤ م .

(٣١) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٧٨ معية تركى وثيقة ٥١١ فى ٢٥ ذى القعدة ســـنة ١٢٦٠ هـ الموافق ١٨٤٤ م .

وعلى الرغم من كل هذه التحذيرات فان ارسال الماشية المريضة استمر حتى أن الأطباء البيطريين حذروا الناس من عدم تناول لحومها ، خوفا على صحتهم وطالبوهم بترك الماشية المريضة حتى تنفق ، ولكنهم وافقوا فى نفس الوقت على ذبح الماشية الكبيرة فى السن وتناول لحومها .

أعتقد محمد على أن السبب فى ضعف ومرض الماشية السودانية ، يرجع الى طول المسافة التى تقطعها هذه الماشية ، لذلك قرر انشاء عدد من المحطات (الزرائب) كى تستريح فيها الماشية عند الوصول اليها وفيها كان يقدم لها كل ماتحتاجه من أعلاف ومياه ، وزيادة على ذلك فانه عين على كل زريبة ضابطا برتبة ملازم وذلك للاشراف عليها (٣٢) وقد روعى عند اعداد هذه الزرائب (المحطات) أن تكون قريبة من مناطق العمران ، ومن شون العلف ومصادر المياه ، وكانت تجهيزاتها بسيطة ، بحيث لاتتعدى قطعة من الأرض المحاطة بسور من الطين أو من افرع الأشجار وقد اشترط أن تكون هذه الزرائب قريبة من بعضها ، بحيث لاتزيد مسافة المسير بين المحطة والأخرى عن عشر ساعات تقريبا وقد بلغ عدد هذه المحطات ما يقرب من ٩٤ محطة ، وكانت الأولى منها تبدأ من بلدة سودانية تسمى بلدة الطيرة الخضرة (٣٣) التى تقع الى الجنوب من مديرية الخرطوم وكانت الأخيرة من هذه المحطات توجد عند أسوان ، وقد بلغت جملة ساعات المسير بين هذه المحطات نحو ٤٨٢

---

(٣٢) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٧٦ صادر ديوان المعية ، وثيقة ٧٤٩ فى ٢٦ صفر سنة ١٢٦٠ هـ الموافق ١٨٤٤ م .

(٣٣) بلدة الطيرة الخضراء — هى احدى قرى السودان الشمالى ، وتقع عند قمة جبل ضخم يبلغ ارتفاعه حوالى ٣٠٠٠ مترا فوق سطح البحر ، وتقع على مسافة ٣٥ ميلا من بلدة تالودى مركز رئاسة جبال النوبا ، بكردفان ، وجبل الطيرة الخضراء متقطع فى أماكن عديدة ، حيث يوجد به قليل من الوديان ، وبعض الهضاب ، ويسكن أهالى النوبا قمم هذا الجبل ، ويقطن بلدة الطيرة — الخضراء عدة آلاف من السكان الذين يمتلكون قطعانا كثيرة من الماشية ، فيبدو أنهم من قبائل البقارة ، وكان لهم خبرة فى سرقة المواشى ، وكانوا يحملون معهم بنادق قديمة ، يبدو أنهم حصلوا عليها من جنود الجهادية ، وكانت هذه البنادق تعمل بالكبسول .

ساعة (٣٤) وبلغت سعة كل محطة عددا من الماشية يتراوح فيما بين ٤٠ ، ٥٠ راســـا (٣٥) .

هذا عن الاجراءات التى اتخذها محمد على ، بشان جلب اكبر عدد ممكن من الماشية السودانية ، والتى كان لها اكبر الأثر فى تعويض مصر عما فقدته من ثروتها الحيوانية ، فمن قراءة بعض الوثائق يمكن معرفة عدد المواشى التى جلبها محمد على من السودان طوال مدة حكمه فتشير الوثيقة الأولى الى أن المعدل اليومى لعدد الماشية التى كانت ترد من السودان الى مصر عبر جمرك اسوان ، كان يتراوح فيما بين ١٦٠ ، ٢٠٠ راسا من الماشية التى جلبها من السودان الى مصر فى خلال شـــهر واحد هى ٥٤٠٠ راســـا ، وتصبح الجملة الســـنوية ٦٤٨٠٠ الف (اربعة وســـتون الفا وثمانمائة راس من الماشـــية) وتشـــير الوثيقة الثـــانية الى عدد الماشـــية التى جلبت الى مصر خلال عام واحد يبتدىء من ٤ رمضان عام ١٢٦٠هـ ـــ الموافق ١٨٤٤م وحتى ١٠ من شهر شوال عام ١٢٦١ الموافق سنة ١٨٤٥ ، فقد بلغ عددها ٤٢٨٢٤ راسا (٣٦) وتشير الوثيقة الثالثة الى عدد الماشية التى جلبت الى مصر فى خلال شهر يبتدىء من ٥ ذى القعدة سنة ١٢٦٢ الموافق ١٨٤٥م وحتى ٧ الحجة من نفس العام والتى بلغ عددها نحو ٧٢٣٠ راسا من الماشية (٣٧) وبضرب هذا الرقم فى عدد شهور السنة ، تصبح جملة الماشية التى جلبت فى سنة حوالى ٨٦٧٦٠ راسا من الماشية ، وبالقاء نظرة سريعة على هذه الأرقام يتضح أن جملة المواشى التى جلبها محمد على ليست قليلة فى عددها ، اذا قورنت بالوسائل التى استخدمت فى جلبها فقد بلغ عددها فى طوال مدة حكمه نحو ٢٦٠٠٠٠٠ راس تقريبا .

---

(٣٤) محفظة ١٠٧ بحربرا ، وثيقة ٦٦ فى ١٥ شعبان سنة ١٢٦١ هـ الموافق سنة ١٨٤٥ م .

(٣٥) دفتر ٣٧٨ معية تركى ، وثيقة ٣٦٩ ، فى ٢١ صفر سنة ١٢٦١ هـ الموافق ســـنة ١٨٤٥ م .

(٣٦) دفتر ٣٩٣ ـــ صادر المعية ، وثيقة بدون رقم فى ٢٨ ذى الحجة سنة ١٢٦٠ هـ الموافق سنة ١٨٤٥ م .

(٣٧) محفظة ٩ بحربرا ، وثيقة ٨٧ فى ١٥ ربيع ثان ســنة ١٢٦٣ هـ الموافق سنة ١٨٤٦ م .

لم يقتصر محمد على ، على جلب الأبقار السودانية فقط ولكنه جلب أيضا أعدادا كبيرة من الجمال لاستخدامها فى نقل المحاصيل الزراعية ، ونقل امتعة جنود الجهادية،وقد بلغ عدد الجمال التى تمجلبها من السودان طوال مدة حكمه حوالى ٢١٧٥٧ جملا ، بالاضافة الى جلبه عددا من الخيول بلغ حوالى ٣٦٦ رأسا ، وعددا آخر من الجاموس البرى بلغ نحو ٣٧٦ رأسا (٣٨) .

من الملاحظ أن جلب محمد على للابل والجاموس والخيول لم يكن بالقدر الذى جلب به الأبقار ، وربما يرجع ذلك الى أن الأبقار كانت ولاتزال أكثر نفعا للفلاح المصرى عن غيرها من الحيوانات الأخرى ، وخاصة فى الاعمال الزراعية ، بالاضافة الى أن الفلاحين كانوا يحصلون من الأبقار على الألبان ومشتقاتها المختلفة ، زيادة على ذلك فانهم كانوا يفضلون لحومها عن بقية اللحوم الأخرى،ويمكنتعليلجلبمحمد على اعدادا كبيرة من الابلوالجاموس راجعالى أن هذه الأنواع لم توجد بوفرة فى السودان ،وهذا احتمالربما يكون على جانب كبير من الصحة لأنه لو قدر ووجدت هذه الحيوانات بوفرة ، لما تركها محمد على دون استغلال،كاستغلاله للأبقار مثلا،وربما يكون السبب أيضا فى عدم جلبه لهذه الحيوانات ، هو أنه ليس فى حاجة اليها ، وهذا جائز لأنالسودان معروف بوفرة ثروته الحيوانية .

وعلى أية حال فانالمجهود الذى قام به محمد علىفى مجال جلب الأبقار، وغيرها من الحيوانات الاخرى ، مجهود يستحق التقدير ، لأنه أدى بالتالى الى وجود تكامل اقتصادى بين القطرين الشقيقين ، وساعد على تنمية الثروة الحيوانية فى مصر .

٢ ــ الجــلود :

الى جانب جلب محمد على للحيوانات المختلفة ، قام أيضا بجلب كميات من الجلود ، فقد أصدر تعليماته الى حاكم السودان ، بأن يقوم بشراء جلود الأبقار السنارية ، واعطائها الى السبعة اشخاص المصريين ، الذين

---

(٣٨) انظر محافظة أبحاث السودان ، فى الفترة ما بين ١٢٣٥ ، ١٢٦٦ هـ

ذهبوا الى السودان للعمل فى دبغ الجلود ، بدلا من تركها تتلف وتتعفن (٣٩) بالاضافة الى ذلك فانمطلب من كل من مدير دنقلة وكردفان أن يرسلا،كميات الجلود الموجودة فىمديرياتهم،ولكنهما افادا بأن كميات هذه الجلود ضئيلة جدا ، فطلب منهما ان يوافياه بكشف يتضمن عدد جلود الأبقار التى ذبحت فى خلال عام . ويبدو أن السبب فى طلب محمد على الجلود من سنار ودنقلة وكردفان، يرجع الى أن هذه البلاد كانت غنية بثروتها الحيوانية أو ربما لأن هذه البلدان كانت من المراكز التجارية الهامة فى السودان .

ومن الملاحظ أن استغلال محمد على لجلود الماشية السودانية كان ضئيلا ، لأنه فضل فيما يبدو أن يجلب الماشية الحية بدلا من الجلود حيث يمكن له أن يحصل منها على الجلود واللحوم معا ، ولعل الثروة الحيوانية فى مصر كانت قد زادت ، وزاد معها بالتالى انتاجها من الجلود .

٣ ــ الصـــــوف :

الصوف من المنتجات الحيوانية الهامة ، وخاصة اذا كان من الأنواع الجيدة ، مثل اصواف المارينو ، لذلك نجد أن محمدا عليا لم يغفل استغلال الصوف السودانى ، ففى عام ١٨٣٥ م طلب من حكمدار السودان ، أن يقوم بشراء الصوف من المواطنين السودانيين ويرسله الى مصر (٤٠) وبالفعل قام حكمدار السودان بارسال كميات كبيرة من هذا الصوف الى مصر ، ولما اجريت عليه بعض التجارب لمعرفة مدى صلاحيته فى مجال صناعة الملابس اتضح انه لايصلح فى صناعة الجوخ ، لذلك تقرر أن تصنع منه العباءات والأحرمة ، ولكنها لم تكن جيدة بسبب خشونته فاضطر محمد على الى أن يخلطه بالصوف المصرى لكى يصنع منه الأجولة(٤١) ، ولما عرض منه كمية للبيع فى الاسكندرية

---

(٣٩) دفتر ٧٤٢ ديوان خديو ، وثيقة ، ١٨٥ فى ٢٧ ربيع أول سنة ١٢٤٣ هـ الموافق سنة ١٨٢٧ م .

(٤٠) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٦٠ صادر معية تركى ، وثيقة ٣٨٦ فى ٣ ربيع أول ١٥٢١ هـ الموافق سنة ١٨٣٥ م .

(٤١) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٨١ معية تركى ، وثيقة ٣٦٦ فى ٢٣ محرم سنة ١٢٥٣ الموافق ١٨٣٧ م .

عام ١٨٤٣ ، وكانت تقدر بنحو ٢٢٦٢ قنطارا ، رفض التجار شراءها (٤٢) فمن المرجح ان يكون السبب فى رفض شرائها راجع الى رداءة هذا الصوف.

٤ ــ العـــاج :

لم يترك محمد على العاج دون استغلال ، ففى عام ١٨٤٤ أرسل اليه حكمدار السودان ٢٦ قطعة من أسنان فرس النهر ، وذلك ليصنع منها أسنان لولى النعم ، وكانت هذه القطع قد أرسلت فى داخل صناديق من الصاج ، وغطيت بالرمل المبلل بالماء حتى لا تتشقق بسبب حرارة الشمس(٤٣) وفى عام ١٨٤٨م وصلتكمية أخرى من أسنان فرس النهر ، بلغت كميتها نحو ١١٦٠ درهما (٤٤) ويبدو أن ذلك كان لنفس الغرض الســـابق ، وفى العام السابق كان حكمدار السودان قد أرسل كمية اخرى من العاج بلغت حوالى ١٠٠ قطعة (٤٥) .

من الملاحظ أن محمدا عليا لم يجلب من العاج وأسنان فرس النهر ، كميات تستحق الذكر ، لعل ذلك يرجع الى عدم رغبته فى استغلال هذه الأصناف ، أو لأنه فضل أن يحصل على اشياء أخرى ، كانت اكثر رواجا ومنفعة بالنسبة له ، وربما يرجع عدم استغلاله للعاج الى أن المناطق الغنية بهذا الصنف ، لم تكن قد خضعت بعد لحكمه ، ومن المرجح ايضا أن العاج كان قليلا فى الأماكن التى خضعت لنفوذ محمد على فى ذلك الوقت .

---

(٤٢) محافظ ابحاث الســـودان ــ دفتر ٣٦٩ معية تركى ، وثيقة ٤٠٢٢ فى ١٦ رجب سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(٤٣) محفظة ١٩ بحربرا ، وثيقة ٤٧ فى ٧ رجب سنة ١٢٦٠ هـ الموافق ١٨٤٤ م .

(٤٤) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٤٥٨ صادر معية ، وثيقة ٤٢١ فى ١٠ شوال سنة ١٣٦٥ هـ الموافق ١٨٤٨ م .

(٤٥) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٢٩٠ ــ ديوان كتخدا ، وثيقة ١٥٨٦ فى ٢٧ ربيع ثان سنة ١٢٦٤ هـ الموافق ١٨٤٧ م .

الفصل الثالث

المعادن

عرف الانسان المعادن المختلفة ، منذ فجر التاريخ وزاد اهتمامه بها عندما تمكن من استغلالها فى صناعة أدواته المختلفة التى مكنته بالتالى من التغلب على كل العقبات الطبيعية التى صادفته وتعتبر المعادن بحق من أهم عناصر التقدم والمدنية فى عالمنا المعاصر ، ولاهميتها هذه ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وانزلنا الحديد فيه بأس شـــديد ، ومنافع للنـــاس » .

ولما أدرك محمد على هذه الأهمية حاول من جانبه احضار المعادن من السودان ، وركز جهده بصفة خاصة على معدن الحديد والذهب ، فالأول من هذين المعدنين سيصنع منه احتياجات جيشه من أسلحة وعتاد ، والثانى منهما سيزيد به حصيلة خزانته .

١ ــ الحـــديد :

وبمجرد أن وصلت حملاته الى السودان طلب من البك الدفتردار أن يقوم بالتنقيب والبحث عن معدن الحديد والمعادن الأخرى فى جبال كردفان ويتضح ذلك من خطابه الذى أرسله اليه والذى جاء فيه ما نصه :

« أرسل اليك بشأن استنباط ما هو لازم من منافعها (كردفان) والعلم بما ينفع من حاصلاتها ، ومعرفة كلّ ما هو خفى وجلى من مناجمها (١) » .

لم ينتظر محمد على ، رد البك الدفتردار على خطابه السابق ، بلْ

---

(١) ملخصات المعية السنية ، وثيقة ٢٢ فى ٣ صفر سنة ١٢٣٧ هـ الموافق ١٨٢١ م .

بدأ فى اعداد الفنيين ، والأسطوات اللازمين لصناعة الحديد ، تمهيدا لارسالهم الى كردفان ، بالاضـــافة الى انه طلب منه أن يبذل قصـــارى جهده من أجل الحصول على معدن الحديد ، ويتضح ذلك من خطابه التالى والذى جاء فيه ما نصـــه :

« بناء على ما تحققناه على وجه الصحة والوثوق من أن مناجم الحديد موجودة بوفرة وجسامة فى كردفان ، وان النوع الجيد جدا من هذا الحديد يستخرج من هناك ، فأنا الآن مشغول باعداد الأسطوات ومتخصصى العمال وحاذيقيهم وماهريهم من الذين يذيبونه بحيث يجعلونه على صورة مواسير ، ولن العزم المقصود على ؛ هو أن أرسل مع المعدين من هؤلاء الأسطوات ، اسطوات آخرين من أجل مسألة الكلس (الجير) وبنائى المصاهر ، فنحن نعمل على امر ارسالهم ، فاعز مطلوبنا أن تبذلوا بعد اطلاعكم انتم على هذا الشأن ، بما تقتضيه غيرتكم من أن تتحققوا من الآن ، وتثوثقوا من المحال التى يوجد فيها جوهر المعدن المذكور قويا وبمقادير وافية مباركة ، وان تبادروا وتهيئوا الأسباب التى تستوجبها سهولة استخراجه وصوغه ، وبذلك تشمرون عن ساق الجد والحمية لصنعه،وعند وصول الأسطوات المذكورين اليكم ، عليكم الا تدخروا وسعا فى معرفة المحال التى يؤمل وجود سائر المعادن الأخرى فيها ، وذلك بالبحث والتحرى عنها واستكشافها ، بحيث لا تكون هذه المسائل والوسائل باعثا على اضاعة الوقت ، دون الايفاء بمهمة تحقيق هذا الهدف » . (٢)

فواضح من هذين الخطابين مدى اهتمام محمد على بالحصول على معدن الحديد الذى كان فى حاجة ماسة اليه ، وبصفة خاصة فى صناعته العسكرية، وقد تقرر أن يصنع فى مناطق استخراجه ، تجنبا لتكاليف نقله الى مصر ، بالاضافة الى انه كان لا يريد أن يعلم السلطان العثمانى بمشروعاته الحربية.

ومن أجل ذلك واصل البك الدفتردار العمل فى التنقيب عن الحديد فى جبال كردفان فى الفترة ما بين ١٨٢٠ ، ١٨٢٤ م . وبعدها توقفت عملياته

---

(٢) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ١٠ معية تركى ، وثيقة ٢٤ فى ٣ صفر سنة ١٢٣٧ هـ الموافق سنة ١٨٢١ م .

التعدين فى هذه الجبال ، وذلك لعدة أسباب ، منها عدم حصول محمد على ، على أية كميات من الحديد تستحق الذكر ومنها انشغاله بمسألة احضار العبيد الى مصر ، وهذا احتمال على جانب من الصحة ويؤكد ذلك انه ارسل فى عام ١٨٤٦ م بعثة جيولوجية أخرى الى كردفان (٣) لمواصلة عمليات التنقيب عن الحديد فى جبالها من جديد ولكن على الرغم من كل هذه الأعمال فانها لم تعثر الا على كميات ضئيلة ، كانت قد أرسلت الى ديوان المدارس لاجراء التجارب عليها لمعرفة نوعيتها ، ومدى صلاحيتها فى الصناعة ، وكانت هذه البعثة قد قامت أيضا بالتنقيب عن الحديد والجير فى منطقة النيل الأبيض ، ولكنها لم تعثر على أى شىء يذكر من المعادن(٤) ثم نقبت بعد ذلك عن النحاس والقصدير فى موطن قبائل الشلك ، ولكن جهودها باءت بالفشل (٥) ويبدو أن جهود محمد على الخاصة بجلب الحديد من كردفان لم تأت بالنتيجة المرجوة بل باءت بالفشل ، وربما يرجع ذلك الى خلو هذه الجبال من معدن الحديد ومن المعادن الأخرى .

٢ ــ الذهب :

لم تقتصر جهود محمد على ، على البحث عن الحديد فى جبال كردفان وغيرها من المناطق الأخرى فحسب ، بل شملت ايضا البحث والتنقيب عن معدن الذهب فى مناطق سنار وفازوغلى وكردفان ، ويتضح ذلك من قراءة خطابه الذى أرسله الى البك الدفتردار والذى جاء فيه ما نصه :

« اشعرتمونا من أن هناك جبلا يبعد عن كردفان مسيرة خمسة أيام يخرج منه معدن الذهب ، فأمروا بكشف هذا الجبل وبحثه لتفهموا ، ما اذا كان هذا الذهب ينتج من باطن الجبل نفسه ، أو يكون متخلفا عن مياه

---

(٣) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٤٣١ معية تركى ص ٦١ ، وثيقة ٣٨٧ فى ٩ ذى الحجة سنة ١٢٦٣ هـ الموافق ١٨٤٦ م .

(٤) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٥٩٠ ديوان الكتخدا ، وثيقة ٢٠٣١ فى ٣ ربيع الثانى سنة ١٢٦٤ هـ الموافق ١٨٤٧ م .

(٥) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٦٠١ وارد ديوان الكتخدا ، وثيقة ١١١ فى ٩ ذى القعدة سنة ١٢٦٥ هـ الموافق ١٨٤٨ م .

الأمطار ، التى تنحدر من الجبال التى وراء هذا الجبل ، كيفما يحدث للذهب ؛ الذى يأتى مع مياه السيول ويتجمع فى الأماكن المنخفضة ، ولا يتأثر ، فاذا ظهر انه من باطن الجبل فيطلب أن تنظروا فى شانه وتبتوا فى امره بحسن تدبيركم وأن تخبرونا بالكيفية » (٦)

لم يكن البك الدفتردار هو المكلف وحده ، بالبحث والتنقيب عن معدن الذهب فى جبال كردفان ، بل كان هناك اسماعيل بن محمد على ؛ الذى كان يقوم بدوره بالتنقيب والبحث عن الذهب فى سنار وفازوغلى ، ولكن يبدو أن هذه العمليات لم تسفر عن نتائج تستحق الذكر على الرغم من انها استمرت فترة طويلة من الزمن ، تبتدء من عام ١٨٢٠ وحتى عام ١٨٢٨ م مما دفع محمد على عام ١٨٢٩ م ، الى أن يقوم بتدعيم عدد الأفراد المخصصين للتنقيب عن معدن الذهب ، بعدد آخر من العمال والخبراء المصريين والأجانب وهم على النحو التالى : (٨ مهندسين من ابناء العرب — ٢ مهندس أوربى ، ٢٠ نجارا ، ٢٠ حدادا ؛ ٢٠ عاملا بناءا ، وجميعهم كانوا من ابناء العرب ، ١٥ عاملا نحتا ، ٢٠ ضاربا الغاما ، ٢ صانعى براميل ، ٢ مبيض نحاس ، ٢٠ نشـــارا) .

لكن يبدو أن هذا الاجراء من محمد على لم يأت بالنتيجة المطلوبة ، فطلب من حاكم السودان أن يقوم بشراء العملة الذهبية ، وكذلك الذهب الخام من الوطنيين السودانيين ، ويرسله الى مصر ، وعلى هذا الأساس أصدر حاكم السودان أمرا الى الجمارك بأن تمنع تصدير الذهب الخام من بلاد السودان الى الخارج ، وكان ديوان المالية ، فى مصر قد أرسل له ١٠٠٠ كيســة من النقود ، لكى يســتخدمها فى شراء ما يمكن شراؤه من الذهب (٧) ، وبالفعل تمكن الحكمدار من شراء ١٠٠٠ أوقية من الذهب الســنارى (٨) .

---

(٦) محافظ ابحاث السودان — دفتر ١٠ معية تركى ، وثيقة ٤٨ فى ١٥ ربيع اول سنة ١٢٣٧ هـ الموافق ١٨٢١ م .

(٧) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٨٩٨ معية تركى ؛ وثيقة ٢٦٠ فى ٤ جماد اول سنة ١٢٥٠ هـ الموافق ١٨٣٤ م .

(٨) محفظة ٢٦٢ عابدين ، وثيقة بدون رقم فى ٥ ربيع ثان ســنة ١٢٥٣ هـ الموافق ١٨٣٧ م .

لم يكتف محمد على بهذه الكمية من الذهب التى تسلمها من حاكم السودان بل طلب منه أن يقوم بشراء المزيد من الذهب ، ويرسله الى مصر ، ويتضح ذلك جليا من خطابه الذى جاء فيه ما نصه :

« اجمع ما يمكن جمعه من النقود الذهبية والذهب الخام وارسله الى مصر فى غاية السرعة » . (٩) .

ويبدو أن عمليات الشراء هذه لم تف باحتياجات محمد على من الذهب ، فحاول أن يزيد من فاعلية عمليات التنقيب عن الذهب فى جبال فازوغلى ووصل الامر الى أن جعل العمال والمهندسين يقيمون بصفة مستمرة فى المدينة التى شيدها لهم والتى عرفت باسم (مدينة محمد على) (١٠) .

---

(٩) محافظ ابحاث السودان — دفتر ١٨٩ معاونة أقاليم ، وثيقة ٣٥٤ فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٥٧ هـ الموافق ١٨٤١ م .

(١٠) تضمنت مدينة محمد على قصر الحاكم ، الذى بنى بالطوب الأحمر ، والمستشفى الذى خصص لعلاج المرضى من العمال ، ومخزن الجبخانة ، والشونتين اللتين خصصتا لحفظ الغلال ، والزريبة التى خصصت لماشية الميرى ، والتى بنيت من القش والحطب ذى الأشواك وكانت قد زودت بثلاثة أبواب ، كان احداها فى جهة الشرق ، والثانى فى جهة الغرب ، والثالث فى جهة الشمال ، وقد زود كل باب بمخفر ، وتضمنت الديوان الذى بنى على الشاطىء الغربى للنيل الأزرق ، وقد خصص لجلوس المعاونين والمهندسين والمعدنجية . والورشة التى خصصت لصناعة القواديس التى كانت تستخدم فى نقل المياه من النهر الى السكان . وعربات اليد التى خصصت لنقل الرمال التى كان من المحتمل أن يوجد فيها معدن الذهب ، بالاضافة الى ذلك فان هذه الورشة قامت بنشر الأخشاب اللازمة للمبانى ، والمخازن التى بنيت من الأحجار ، والتى خصصت لحفظ المهمات والادوات الواردة من مصر ، حتى لا تتعرض للأمطار ، أو لحرارة الشمس ، والمعديتين والصندل الذين خصصوا لتعدية العمال من شاطىء الى آخر (عبور النيل الأزرق) ، والبئرين اللتين حفرتا لتزويد المدينة بما يلزمها من المياه الصالحة للشرب ، وكان عمق احداهما خمسة امتار وعمق الآخر ٢٫٥ متر ، زيادة على ذلك فان هذه المدينة

بلغ عدد العمال الفنيين الذين كانوا يتطلزن بدينة محمد على ، والذين كانوا يعملون فى مختلف الأعمال نحو ٣٧٦ شخصا ، كان منهم ٢٢٤ شخصا من المصريين والباقون كانوا من السودانيين ، وكان هؤلاء العمال جميعا يتقاضون أجورا ضئيلة الى حد ما ، واذكر على سبيل المثال انه كان يوجد هناك ٦ ستة من هؤلاء العمال ، الذين كانوا يعملون فى مهنة السمكرة والتبييض ، وكانوا جميعا يتقاضون أجرة يومية تدرها ٣٠ قرشا ، أى بمعدل خمسة قروش للفرد الواحد فى اليوم .

كان محمد على يتابع بصفة مستمرة سير العمل فى مناجم فازوغلى ، وذلك بواسطة المندوبين الذين كان يرسلهم من وقت الى آخر (١١) وكان من هؤلاء المندوبين على سبيل المثال الصاغقول اغاسى ابراهيم افندى الذى زار مواقع التنقيب فى فازوغلى وأحضر معه بعض العينات من الذهب الخام

= زودت بكمية من المؤن تضمنت ٢٨ أردبا من القمح ، ٣ أرادب شعير ، ٨٦٣ اقة ، ٣٠٨درهمامن الأرز ، ٤١١١ اقة ، ٣٠درهمامن الملح ، ١١ قنطارا ، ٤٣ رطلا من المسلى ، ١٥ قنطارا ، ٤٨ رطلا من الدقيق ، ٦٤ قنطارا ، ٤٣ رطلا من البقسماط ، ٢٠ اقة ، ١٣٦ درهما من الشمع ، ٢٧ زجاجة ماء كولونيا ، ٦٢٢٤ ثوب من القماش الدمور ، ١٨٢٩ ثوب من البفتة الهررى ، وقد تلاحظ ان بعض هذه الأصناف من المؤن كان كثيرا والبعض الآخر كان قليلا ، فالأصناف القليلة كانت تتمثل فى الشمع والكولونيا والملح والارز ، وكان الشمع والكولونيا يصرفان للمرضى الموجودين بالمستشفى ، واما باقى المؤن فكانت تصرف كتعيين للأفراد ، وما يتبقى منها كان يباع للأهالى والنجار ، وكان من هذه المؤن المتوفرة حبوب الذرة ، التى كانت تتلف اذا تركت فى المخازن مدة طويلة ، وقد بلغ جملة المخزون من حبوب الذرة حوالى ١٥١٥٩ أردبا ، صرف من هذه الكمية على أصحاب التعيينات حوالى ٣١٥٩ أردبا فى مدة ستة شهور وظل الباقى بالمخازن ، انظر المحفظة ٢٦٨ عابدين ، وثيقة رقم ٢٢ فى عام ١٨٣٩ م .

(١١) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٨٠ شورى المعاونة ، وثيقة ٤٣٧ فى ٩ جماد اول سنة ١٢٥٧ هـ الموافق ١٨٤١ م .

لتقدمها لمحمد على ، وكان من المتبع أنه كلما عثر العمال على بعض كميات من الذهب الخام ، بادر حاكم السودان بارسالها الى مصر ، ففى عام ١٨٤١ تم ارسال كمية من الذهب بلغ وزنها ٤٦١٤ أوقية (١٢) .

لم يكتف محمد على بالمتابعة التى كان يقوم بها بعض المندوبين بل كلف أيضا حاكم السودان بأن يقوم بنفسه بمتابعة سير العمل فى مناجم الذهب ، ويتضح ذلك من خطابه الى الحكمدار والذى جاء فيه ما يلى : « اذا وصلتم باذن الله تعالى الى ذلك المحل (المنجم) واخذتم بالحفر فيه فلا تاخذوا التراب الذى هو بأعلى الحفر ، بل اعملوا بما هو معتاد عند الأهالى من القديم ، وما هو من أصولهم من حفر الحفر العميقة ، واخذ التراب الذى يخرج منها والتدقيق به كما يلزم . فانه اذا نقبتم عن الأحجـــار التى تظهر وغسلتم ذلك التراب الذى يلزم غسله فانه من المؤكد أن تجدوا عرق ذلك المعدن (الذهب) وبناء على ما أوضحناه لكم احفروا الحفائر العميقة ، ودققوا فى الأحجار التى ستخرج منها . واغسلوا التراب الذى يلزم غسله ، واى شىء ترونه فى نهاية الأمر عرفونا عنه بالتوضيح وهذا مالزم أشعاركم به » (١٣)

وعلى الرغم من كل هذه المجهودات الشاقة التى قام بها الأشخاص المكلفون بالبحث والتنقيب عن معدن الذهب ، فانها ضاعت سدى ، والدليل على ذلك التجربة التى أجريت بفرض التنقيب عن الذهب فى جبل الرول التى استغرق العمل فيها ، ثلاثة أيام ابتداءا من يوم الأحد ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٦١هـ وحتى يوم الثلاثاء ١٧ من نفس الشهر ، وشـــملت عمليات التنقيب جميع جهات الجبل ، ففى اليوم الأول بدأ العمل فى الجهة الشرقية من هذا الجبل ، ابتداءا من قمته وحتى أسفله وتم الحصول على كمية من الرمل الذى كان من المعتقد أن يوجد بها معدن الذهب الخام ، ولكن بعد غسلها حصلوا منها على حبتين فقط من الذهب الخام ، وفى اليوم الثانى تم

---

(١٢) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٢٨٤ معاونة ملكية ، وثيقة ٢٠٦٤ فى ١٦ شوال سنة ١٢٥٧ الموافق سنة ١٨٤١ م .

(١٣) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٣٧٦ صادر ديوان المعية ، وثيقة ٢٨٦١ فى ١٦ جماد ثان سنة ١٢٦٠ الموافق ١٨٤٤ م .

فحص الجهة الغربية من الجبل وقد تم الحصول أيضا على حبتين من الذهب، وفى اليوم الثالث تم فحص الجبل من الجهة البحرية والقبلية وتم الحصول منها على قمحة واحدة من الذهب ، وقد بلغ ، مقدار الكمية التى تم الحصول عليها من الذهب الخام أربع حبات وقمحة واحدة ، وبلغ عدد الجنود الذين قاموا بعمليات التنقيب نحو ٢٦٨٨ جنديا من جنود الجهادية . (١٤)

لم تثن هذه الكمية الضئيلة من الذهب الخام من عزم محمد على ، بل واصل محاولاته الخاصة بالتنقيب عن معدن الذهب فى فازوغلى ، فكان قد أرسل من طرفه فى عام ١٨٤٥ م خسرو باشا أحد كبار المسئولين فى الدولة ، وذلك لاستطلاع أحوال عمليات التعدين ، وهناك قابل أحد شيوخ القبائل القاطنة بجهة جبل الرول ، الذى كان يدعى الشيخ ادريس وتدارس معه خسرو باشا امكانية الحصول على كميات كبيرة من الذهب من كل من جبل الرول والتماميل والقسان وفازوغلى ، وبعد المناقشة التى تمت بينهما ، راى خسرو باشا أن عمليات التعدين هذه ، تحتاج الى عدد كبير من عساكر الجهادية ، كما راى أيضا ان يساهم شيوخ منطقة فازوغلى فى ارسال عدد من الأفراد الذين سوف يقومون بالمساهمة فى التنقيب الى جانب الجنود ،وبعد المداولة مع هؤلاء الشيوخ تقرر اعداد القوات التالية :

٤٠٠٠ من عساكر الجهادية .
١٥٠٠ من عساكر السر سوارى والهنادى والشايقية .
١٠٠٠ من ابناء القبائل على شرط ان يكون أغلبهم من الهجانة
١٠٠٠ هجان من قبل الشيخ ادريس التابع لمديرية فازوغلى .
٣٠٠ هجان من قبل الشيخ مرسى التابع أيضا لمديرية فازوغلى .
٢٠٠ جندى من قبل الشيخ عزوز التابع لمديرية فازوغلى .
٤٠٠ هجان من قبل الشيخ حسن ولد العجيب من مديرية سنار .
١٧٥ هجان من قبل كل من عبد القادر ومحمد أغا التابعين لسنار .

---

(١٤) محفظة ١٩ بحر برا ، وثيقة ١٧٧ القعدة سنة ١٢٦١ الموافق ١٨٤٥ م .

وقد بلغت جملة هؤلاء الأفراد حوالى ٨٥٧٥ شخصا ، وكان الشيخ ادريس قد اقترح أن يكون عدد الجنود الذين سوف يعملون فى مناجم الذهب بقدر عدد العبيد الذين يقطنون جهات التعدين ، يبدو من هذا ان العبيد الوطنيين كانوا يقومون بمهاجمة العمال اثناء تاديتهم لعملهم ، مما دفع الشيخ ادريس أن يطلب زيادة عدد الجنود ، زيادة على ذلك فانه تقرر أن تزود هذه القوات بما يلزمها من مؤن وخلافه على شرط أن يتم جمعها قبل حلول موسم الخريف (١٥) .

وبعد بدء العمل ، لم يعثر العمال على كميات من الذهب تستحق الذكر ، ويتضح ذلك من اجراء هذه التجربة الثانية والتى تمت فى منطقة التعدين فى المدة المبتدئة من غرة ربيع ثان سنة ١٢٦١ هـ وحتى ٨ من ذى القعدة من نفس العام وهى على النحو التالى :

المدة		كمية الذهب المستخرجة
من	الى	
٥ ربيع ثان ١٢٦١ — ١٨٤٥	٤جماد أول ١٢٦١ — ١٨٤٥	٣/٤ ١٣ حبة
٦ جماد أول « «	٥ جماد ثان « «	٣/٤ ١٦ حبة
٦ جماد ثان « «	٥ رجب « «	١ قيراط، ٢١/٢ حبة
٦ رجب « «	٩ شعبان « «	١ قيراط ، ١٥ حبة
١٦ شعبان « «	١٥ رمضان « «	٢ قيراط ، ١٦ حبة
١٦ رمضان « «	٣٠ رمضان « «	٢ قيراط ، ١٥١/٢ حبة
١ شوال « «	٣٠ شوال « «	٣ قيراط ١٨١/٢ حبة
١ ذى القعدة « «	٣٠ القعدة « «	١ قيراط ١٢٣/٤

(١٥) محفظة ١٩ بحر برا — وثيقة ٧٤ فى ٩ صفر سنة ١٢٦٢ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

وقد اشرف على هذه العملية كل من مدير سنار وفازوغلى ومفتش المعادن ، وبلغ عدد الأفراد الذين اشتركوا فى اجرائها حوالى ١٨٠٦٢ شخصا ، كما بلغ عدد الأيام التى استغرقتها هذه التجربة ١٣٠ يوما ، ما عدا أيام الجمع والأيام التى كان ينزل فيها المطر ، وقد بلغت كمية الذهب الخام التى تم العثور عليها أوقية واحدة ، ¼١٣ حبة (١٦) .

لم ترض هذه الكمية من الذهب خاطر محمد على ، فاضطر الى أن يطلب من مدير سنار وفازوغلى ، أن يفرضا شيئا من الذهب على كل بيت من بيوت سكان جبل الرول ، كنوع من الأتاوة فيما يبدو ، ولكن مدير سنار رفض هذا المطلب ، وافهم محمدا عليا ، بأن هذا الاجراء ، لو تم سيجعل السكان الوطنيين لايميلون الى الحكم المصرى بل سوف ينضمون بالتالى الى القبائل المنشقة على الحكومة المصرية ، وبذلك يزداد خطرهم ، وكان هؤلاء المنشقون يمثلون قبائل مغزوعة ، وأقلون واندون والسنجليت والخمشة ، والخواريو والاقوله ، والفناجقة ، والفنامسون والخزماتو والجرك . (١٧) .

عدل محمد على عن مطلبه بعد أن اقتنع برأى مدير سنار ، ولكنه من ناحية اخرى واصل ، عمليات البحث والتنقيب املا فى الحصول على الكميات المطلوبة من الذهب الخام ، وفى هذا الصدد عين ناظرا يعرف باسم ناظر المعادن (١٨) وذلك ليقوم بالاشراف على عمليات التعدين ، ويمكن تعليل تعيين هذا الناظر ، بأن المشرفين السابقين على عمليات التعدين ، كانوا قد فشلوا فى تأدية مهمتهم وكان محمد على قد زوده بعدد من عربات اليد ، التى كانت تستخدم فى نقل الرمال التى يحتمل وجود معدن الذهب فيها (١٩) وفى نفس

---

(١٦) محفظة ١٩ بحرا برا وثيقة ٧٠ فى ١٨ ذى الحجة ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

(١٧) محفظة ١٩ بحرا برا ، وثيقة ٦٨ فى ٢٣ القعدة ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

(١٨) دفتر ٥٨٧ صادر ديوان الكتخدا ، وثيقة ٦٢١ فى ١٣ رمضان سنة ١٢٦٣ هـ الموافق ١٨٤٦ م .

(١٩) دفتر ٥٩٠ الكتخدا ، وثيقة ١٤٩٧ فى ٨ صفر سنة ١٢٦٤ الموافق ١٨٤٧ م

الوقت طلب محمد على من ناظر المعادن ، بذل قصارى جهده فى سبيل الحصول على أكبر كمية ممكنة من الذهب ، ويتضح ذلك من خطابه الى ناظر المعادن الذى جاء فيه :

« أرنى جهدك واجتهادك،واهتم كل الاهتمام بالحصول على المنفعةعلى الوجه المبين فى كتابنا (٢٠) » .

أصبح من الواضح لدينا أن جميع الجهود التى بذلها محمد على فى سبيل الحصول على معدن الذهب الخام باءت بالفشل ، ولم يحقق هذا الهدف ، رغم كل ما بذله من مجهودات فى هذا المجال ، ويمكن التدليل على ذلك بالجدول التالى الذى يوضح لنا كميات الذهب التى تم الحصول عليها ، فى خلال عدد قليل من السنوات :

السنة	الكمية	الصنف
١٢٥٠ هـ — ١٨٣٤م	١٣٣٢ أوقية	ذهب
١٢٥٣ هـ — ١٨٣٧	١٠٠٠ أوقية	ذهب
١٢٥٥ هـ — ١٨٣٩	١١٤ أوقية	ذهب
١٢٥٧ هـ — ١٨٤١	٤٦١٤ أوقية	ذهب
١٢٦١ هـ — ١٨٤٥	١ واحد أوقية + ١٨½ قمحة	ذهب
١٢٦٣ هـ — ١٨٤٧	٥٨ أوقية + ١٠ حبه	ذهب
١٢٦٤ هـ — ١٨٤٨	١٠ق + ١٥ أوقية + ١٢½ حبه + ١٨ حجر كريم	ذهب
١٢٦٦ هـ — ١٨٥٠	٢٠٠٠ درهم	ذهب (٢١)

(٢٠) دفتر ٤٣٢ صادر معية ، وثيقة ٥٠٤ فى ٤ صفر سنة ١٢٦٤ هـ الموافق ١٨٤٧ م .

(٢١) انظر محافظ أبحاث السودان — فيما بين سنتى ١٢٣٥ هـ الى عام ١٢٦٦هـ .

الفصل الرابع

الزراعة والغلات الزراعية

نظرا لتباين مناخ السودان ، فقد تعددت غلاته الزراعية ، فمنها ماهو برى ، كالصمغ والسنامكى والأبنوس والنيلة ، ومنها ما هو زراعى ، كالذرة العويجةوالدخنوالحمصواللوبيا والفاصوليا والقمح .وكان لوفرةهذه الغلات الزراعية أثرها الفعال فى نفس محمد على الذى اتبع سياسة الاحتكار التى تمثلت فى اشراف الحكومة على التجارة الداخلية والخارجية ، فكان للحكومة وحدها الحقفى بيع الحاصلات الزراعية للمستهلك المحلى أو للتجارلتصديرها للخارج (١) ويبدو أن السبب فى احتكار محمد على للغلات الزراعية راجع الى عدة عوامل ، منها شروعه فى بناء صرح قاعدة صناعية حديثة ، ومنها أيضا شروعه فى بناء جيش حديث ، وسوف يتضح ذلك من دراستنا للزراعة السودانية والغلات الزراعية .

أولا ــ الزراعة :

اهتم محمد على بالزراعة السودانية ، وذلك بارساله ٣١٠ شخصا من كبار وصغار المشايخ والخوله لكى يقوموا بالاشراف على الأعمال الزراعية فى السودان ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لكى يقوموا بتعليم أبنائه حرفة الزراعة على أسس علمية سليمة (٢) وكان هؤلاء جميعا من مديريات الوجه البحرى كالغربية والدقهلية والقليوبية والبحيرة (٣) ومن المرجح ان يكون

---

(١) د . أحمد أحمد الحته : المصدر السابق ص ٤٣ .

(٢) محفظة ٦ وثيقة ٦٧٢ دفتر ١٨ ملخصات المعية السنية فى ١٢ جماد أول سنة ١٢٤٠ الموافق ١٨٢٤ م .

(٣) دفتر ١٩ صادر معية تركى ، وثيقة ٣٦٧ ، ٣٧٠ فى غرة رجب سنة ١٢٤١ هـ الموافق ١٨٢٥ م .

اختيارهم من الوجه البحرى راجعا الى اجادتهم فن زراعة الأرز الذى رغب محمد على فى زراعته فى السودان ، ومن المحتمل أن يكون هذا الاختيار راجعا الى أن الوجه البحرى كان أكثر تقدما فى الزراعة عن بقية الأقاليم المصرية الأخرى وذلك لاعتدال منـــاخه .

بالاضـــــافة الى ذلك فان محمدا عليا ، زود المزارعين السودانيين بما يحتاجونه من بذور ، وخاصة بذور الأرز ، التى تقرر زراعتها فى اقليم سنار وضواحيه وقد بلغت كمية البذور التى أرسلت الى هناك ٣ ضرائب ، ٥ أرادب (٤) ولكن بعد أن أجريت زراعته فى سنار باءت بالفشل ، فربما يرجع ذلك الى عدم العناية به ؛ أو من المرجح أن يرجع ذلك الى عدم ملاءمة مناخ سنار لنموه حيث يتميز مناخها بشـدة الحرارة ومن المعروف ايضا أن زراعة الأرز تجود فى المناطق المعتدلة ، وليس فى المناطق الحارة ، والدليل على ذلك ان زراعته نجحت فى دنقلة ، وذلك فيما يبدو لاعتدال مناخها بعض الشىء ويرجع تاريخ زراعته فى دنقلة الى عام ١٨٢٩ ، ففى هذا العام زرعت مساحة من الأرز هناك ، وذلك لاستخدام انتاجها كغذاء لجنود الجهادية ، بدلا من جلبه من مصر ، وكان قد تقرر أن تستخدم المدقات الخشبية فى نزع بذوره (الدرس) (٥) .

والى جانب زراعة الأرز فى دنقلة ، تقرر أن يزرع فيها قصب السكر ، وبالفعل زرعت منه مساحة قدرها ١٨ فدانا ، كانت على سبيل التجربة وتشير الدلائل الى أن زراعة قصب السكر فى دنقلة ، أحرزت تقدما ، لأن مديرها كان قد طلب من محمد على أن يوافق له على انشاء مصنعا لصناعة السكر (٦) ولكن الأخير طلب من المدير أن يجرى بعض التجارب على هذا القصب لمعرفة مدى

---

(٤) دفتر ٢٠ صادر معية تركى ، وثيقة ٣٨٨٠ فى ٧ شعبان سنة ١٢٤١ هـ الموافق ١٨٢٥ م .

(٥) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٧٦٦ — ديوان خديو ، وثيقة ١٥١ فى ١٩ رمضان سنة ١٢٤٦ الموافق ١٨٣٠ م .

(٦) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٤٤ معية تركى ، وثيقة ٤٤١ فى ٢٩ ربيع ثان سنة ١٢٤٨ هـ الموافق ١٨٣٢ م .

صلاحيته لصناعة السكر من عدمه قبل أن ينشىء مصنعا له ومن المرجح أن تكون زراعة قصب السكر فى دنقلة قد نجحت لأن مناخها يلائم زراعته ، فالقصب من الغلات التى تجود زراعتها فى المناطق الحارة ، وخير دليل على ذلك مدى نجاح زراعته فى صعيد مصر .

ومن الغلات الزراعية الأخرى التى زرعت فى دنقلة نبات (الأفيون) الذى من المرجح أن يكون محمد على قد وافق على زراعته بغرض استخدامه فى الأغراض الطبية ، ولكن زراعته لم يقدر لها النجاح ، ربما يرجع ذلك الى سوء المناخ والتربة ، ويؤكد ذلك قراءة البنـد الرابع من بنـود مجلس المشـورة الذى انعقد فى الخرطوم فى ٨ محرم سنة ١٢٤٢ هـ الموافق ١٨٢٦م والذى نص على وقف زراعة الأفيون وذلك لعدم نجاحها .

لم تقتصر الزراعة فى السودان على الغلات السابقة فحسب ، بل زرع السكان القمح والشعير والذرة ، وكانوا يستخدمون السواقى فى رى هذه الغلات ، وقد بلغ عددها نحو ٦٠١٢ ساقية ، كان منها ٣٤٥٠ ساقية صالحة للاستعمال ، ٥٥١ ساقية معطلة ، ٢٠١١ ساقية قابلة للاصلاح ، وبلغ عدد المواشى التى استخدمت فى ادارة هذه السواقى نحو ١٠٢٤٨ راسا ، وكان محمد على قد أمر باصلاح السواقى المعطلة كما أمر أيضا بزيادة عدد المواشى اللازمة لأدراتها . (٧)

لم يقصر محمد على اهتمامه بالزراعة على اقليم دنقلة فحسب ، بل اهتم أيضا باقليم سنار الذى يتميز بخصوبة تربته ووفرة مياهه فأنشأ فيه حوالى ١٥٠٠ ساقية ، كما زوده أيضا بعدد من الماشية بلغ حوالى ٢٦٠٠ رأس ، وفى نفس الوقت كان قد زود المزارعين فى كردفان بنحو ٢٠٠٠ رأس من الماشية . (٨)

---

(٧) محفظة ٢٦٨ عابدين ــ وثيقة ٤٠ فى ٢٧ شوال سنة ١٢٥٥هـ الموافق ١٨٣٩ م .

(٨) محفظة ٢٦٨ عابدين وثيقة ٧٨ فى ٢٥ شوال سنة ١٢٥٥ هـ الموافق ١٨٣٩ م .

بالاضافة الى ذلك كله ، فان محمدا عليا زود المزارعين السودانيين ايضا بعدد من اسلحة المحاريث المصرية بلغ حوالى ٥٠٠ سلاح ، وكانت هذه الأسلحة تعتبر تطورا عظيما بالنسبة للزراعة السودانية ، لانها حلت محل السلوكه فى حرث الأرض (٩) .

لم يكتف محمد على بذلك بل طلب من الحكمدار أن يرسل ستة من أبناء وجهاء السودان ، كى يتعلموا العلوم الزراعية الحديثة فى مصر ، حتى يتمكنوا بعد عودتهم الى بلادهم من المساهمة بقسط وافر فى تقدم الزراعة السودانية ، وفى هذا الصدد يخاطب محمد على حاكم السودان بقوله :

« اكتبوا أن اللازم الى هؤلاء هو تعلم علم الزراعة ، فيجب الحاقهم بالمدرسة التجهيزية فى الوقت الحاضر ، توطئة لتعليمهم العلم المذكور ، ان شاء الله تعالى ، ويجب معاملتهم معاملة ممتازة نوعا ما عن اتلاميذ الآخرين ، نظرا لمجيئهم من بلاد بعيدة ، ومع انه خصص خادم لكل عشرة من التلاميذ ، الا ان الواجب يقتضى تخصيص خادم لهؤلاء الستة حتى لا يفترقوا عن بعضهم والعناية بتعليمهم القراءة والكتابة جيدا ، حتى اذا ماظهرت كفاءتهم ، بدأوا فى تعلم علم الزراعة ، فنخطركم باننا سوف نرسل أولائك الأولاد الستة اليكم مع القواص مصطفى » . (١٠)

من المرجح أن هؤلاء التلاميذ بعد أن أتموا دراستهم فى مصر عادوا الى بلادهم ، وربما ساهموا بعلمهم فى خدمة الزراعة ، التى كانت تتعرض فى بعض الأحيان لغزو جيوش الجراد ، التى كانت تقضى فى بعض الأوقات على معظم هذه المزروعات وحينما علم محمد على بذلك طلب من حاكم السودان أن يستخدم كافة الوسائل فى سبيل القضاء على الجراد ، ويتضح ذلك من خطابه الى مدير كردفان الذى جاء فيه ما نصه :

---

(٩) السلوكه : عبارة عن عصا طويلة من الخشب ، يوجد فى أحد أطرافها قطعة مدببة من الحديد ، يستخدمها السكان فى حفر الأرض الى نقر لكى يضعوا فيها البذور ثم يتركونها للطبيعة تتولى أمرها .

(١٠) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٠٦ صادر ديوان المعاونة — جهادية — وثيقة ٩١٢ فى ٩ جماد آخر سنة ١٢٥٥ هـ الموافق ١٨٣٩ م .

« ارنى همتك عند ما يظهر ذلك الجيش من الجراد لا سمح الله ، ففى الحال اهجم عليه بالعساكر والاهالى ، وبادروا باتلافه وحيث انه سوف يدفن بيضه هنا وهناك ، فاعثروا على مكانه من غير تردد واتلفوه ، وابذل جهدك واجتهادك لحفظ مديريتك وصيانتها من ضرره ، وهذا ما لزم اشعارك به (١١) .

يبدو أن كل المجهودات التى بذلها محمد على فى سبيل النهوض بالزراعة السودانية لم تأت بالنتيجة المرجوة لكنها كانت تعد على جانب كبير من الأهمية . وربما ظهرت نتائجها على السودانيين فيما بعد .

ثانيا ــ الغلات الزراعية :

كان من أهم الغلات الزراعية السودانية ، التى استغلها محمد على لصالح القطرين بذرة القطن والأبنوس والصمغ والسنامكى ومواد أخرى كالأخشاب ودودة الحرير .

١ ــ بذرة القطن :

كان القطن (١٢) من الغلات الزراعية التى تنمو على نطاق ضيق فى

---

(١١) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٣٩٣ صادر ديوان المعية وثيقة ٦٢ فى ٢٤ رمضان سنة ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

(١٢) زرع القطن فى مصر قبل عصر محمد على ، ولكنه كان قصير التيلة خشن الملمس ، وعرف باسم القطن البلدى ، واستمرت زراعته فى مصر حتى عصر محمد على ، ولكن انتاجه قل من ٥٠٫٠٠٠ قنطار عام ١٨٢٣ ، الى ٦٠٠٠ قنطار عام ١٨٣٣ ، والى جانب النوع البلدى زرع نوع آخر يعرف باسم قطن جوميل بك ، لأن محو بك اكتشف بذوره فى حديقة منزل جوميل بك ، فعرف باسمه وقد زرع هذا النوع منذ عام ١٨٢١ ، والى جانبه زرع أيضا قطن مالطه (تانكين) وفى عام ١٨٢٣ م زرع القطن السودانى ، وكان طويل التيلة ناعم الملمس ، واستمر يزرع بمصر حتى عصر اسماعيل .

السودان ، وكان من اشهر البلاد التى ينمو فيها بلدة مكادة التابعة للحبشة ، والتى تبعد عن حدود السودان الشرقى حوالى ١٥ ميلا ، وكان سكان هذه البلدة يستغلونه فى صناعة الملابس والشيلان ، التى اعجب بها المعلم (حنا الطويل) المسئول عن جمع الضرائب فى السودان .فعند ما زار هذه القرية اشترى لنفسه شالا من شيلانها ، ولما عاد الى مصر ، ورآه محمد على ، يضع هذا الشال ، فوق اكتافه سأله بقوله :

« من أى جهة حصلت منها على هذا الشال يا حنا؟»فقال حنا الطويل: « ان هذا النوع من الشيلان يسمى فروة وهو يصنع من القطن الذى ينبت فى أرض مكاده التابعة للحبشة ، والتى تبعد عن سنار ١٥ مرحلة » . وكان محمد على قد اعجب بهذا الشال وعلى اثر ذلك طلب من (عثمان بك) مدير سنار أن يرسل له كمية من بذور هذا القطن ، لزراعتها بمصر كتجربة أولى ، وبعد نجاحها سوف تعمم زراعتها على نطاق واسع فى كل جهات القطر المصرى ويتضح ذلك جليا من خطاب محمد على الى حاكم السودان الذى جاء فيه :

« لما كانت رغباتنا منصرفة الى عمران مصر بالاكثار من زرع المواد النافعة والمفيدة فيها ، واقامة الآثار الخيرية التى من شانها ان يذكر الناس بالخير أصحابها ، فقد رغبنا فى جلب كمية من هذا القطن لمعاينته ، كما رغبنا فى جلب القدر الممكن جلبه من بذرته لزراعتها هنا ، ومن أجل ذلك أوفدنا اليكم أحد القواصين لهذه الغاية ، وانا لنأمل أن تتوسلوا بالأسباب التى ترونها لجلب بعض القطن ، ومقدار ما يمكن من البذرة ، سواء بارسال مندوبين أو بتحرى الخطابات ثم تسليمها الى القواص ، واعادته الينا وعليكم أن تمنوا كل العناية بأمر رغبتنا هذه واياكم والتهاون فى ذلك » .(١٣)

بمجرد أن تسلم حكمدار السودان خطاب محمد على ، أرسل اليه كمية من القطن الشعر ، ومعها كمية من البذور المطلوبة ، فبالنسبة لكمية

---

(١٣) دفتر ١٤ معية تركى ، وثيقة ٦١٧ فى ١٦ ربيع ثان سنة ١٢٤٠ هـ الموافق ١٨٢٤ م .

القطن الشعر ، فقد أرسلت الى الفبارك لنسجها وعمل التجارب عليها لمعرفة مدى صلاحيتها للنسيج من عدمه (١٤) وبالنسبة لكمية البذور التى وردت من السودان فقد امر محمد على بزراعتها فى أرض شبرا (١٥) وربما يرجع اختياره لأرض شبرا لأنها تتميز بخصوبتها ، حيث تجود فيها كافة المحاصيل الزراعية المختلفة ، بالاضافة الى ذلك فانها كانت قريبة من مقر الوالى ، كى يتابع عن قرب تطورات هذا المحصول الجديد ، زيادة على ذلك فان شبرا كان يوجد بها (الفابريكة) مصنع النسيج الذى كان من المحتمل أن تجرى فيه كافة التجارب على القطن الشعر الذى ينتج من مزارع شبرا .

استمر اجراء التجارب على بذور القطن السودانى عددا من السنين ، زرع بعدها على نطاق واسع ، وقد لوحظ على لوزات هذا القطن أنها ذات لونين ، كان أحدهما أسود ، وهذا النوع كان ذا محصول قليل ، وكان الثانى أخضر اللون ، وهو ذو محصول كبير (١٦) وكان محمد على قد طلب فى عام ١٨٤٢ م من حاكم السودان أن يرسل له كمية أخرى من بذور هذا القطن لكى يواصـــل اجراء التجارب عليه ، وقد بادر حاكم السودان بارسال ٨٣ر٥ اردب من البذور التى وزعت بالتالى على المزارع المصرية (الجفالك) وبعض المديريات الأخرى وكان قد تقرر أن يزرع فى كل جهة من هذه الجهات ثلاثة افدنة على شرط أن تكون من الأرض الجيدة (١٧)

---

(١٤) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٢١ صادر معية وثيقة ٢٩٠ فى ١٤ ربيع اول سنة ١٢٤١ هـ الموافق ١٨٢٥ م .

(١٥) محافظ ابحاث السودان دفتر ٨٥٦ ديوان خديو وثيقة ٣٣٨١ فى ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٤١ هـ الموافق ١٨٢٥ م .

(١٦) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٢٥١ معاونة ايرادات ، وثيقة ٥٠٩ فى ٣ ذى الحجة سنة ١٢٥٥ هـ الموافق ١٨٣٩ م .

(١٧) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٣٧٩ صادر ديوان المعية ، وثيقة ١٨٤٢ فى ٢٥ ربيع آخر ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

وبعد جنى المحصول يرسل منه قنطار الى الفبارك لاجراء التجارب عليه لمعرفة مدى صلاحيته من عدمه . (١٨)

٢ ــ الأبنوس :

جلب محمد على من سنار بذور الأبنوس ، وذلك لزراعتها فى مصر ، وقبل ان يبدأ عملية الزراعة قام بتقسيم هذه البذور الى ثلاثة اقسام ، أرسل الأول منها الى ناظر شبرا ليقوم بزراعته ، وأرسل الثانى الى الاغا الكتخدا ، يبدو انه ناظر الزراعة ، وأرسل الثالث الى ناظر الغابات (الأورمان) فى طنطا وذلك لزراعته هناك . وكان محمد على قد أمر هؤلاء النظار بأن يقوم كل منهم فى كل شهر بزراعة مقدار من البذور التى تسلمها ، وعند نموها بنجاح فى اى شهر من الشهور التى تمت فيها هذه التجربة ، تزرع باقى البذور فى هذا الشهر دفعة واحدة وبكل عناية (١٩) . ويبدو أن زراعة الأبنوس فى مصر باءت بالفشل ، ولم تحقق اى نجاح ، وذلك لاننا لم نجد فيما بعد اى أثر للأبنوس فى مصر ، ومن المرجح ان السبب فى عدم نجاح زراعته يرجع الى عدم ملاءمة المناخ المصرى له ، فالأبنوس ينمو فى المناطق الحارة والمطيرة .

٣ ــ الصمغ :

جاء جلب الصمغ السودانى الى مصر متأخرا ، بمعنى أن محمدا عليا لم يقم بجلبه الا عام ١٨٤٣ م ، ومن المرجح أن يكون السبب فى تأخير جلب محمد على له هو أن تجارته لم تكن رائجة ولكن فى هذا العام نلاحظ انه احتكر تجارته لحسابه ، فمن المرجح أن يكون الصمغ فى هذه السنة قد ارتفع سعره ، وأصبح معروفا لدى الأوربيين الذين زاروا السودان ، بعد الفتح المصرى .

---

(١٨) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ١٦٩ ديوان الخديو ، وثيقة ٣٣٨١ فى ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

(١٩) دفتر ٧٧٩ ــ صادر ديوان الخديو وثيقة ٦٦١ فى ٢٧ ربيع آخر سنة ١٢٤٨ هـ الموافق ١٨٣٢ م .

وفى عام ١٨٤٣ م أرسل حاكم السودان كمية من الصمغ بلغت ١٩٢٦ رحلة (٢٠) وبعدها أرسلت كمية أخرى ، بلغت ٣٠٩٤٠ قنطارا ، ولكن لم يكتف محمد على بهذا القدر بل طلب المزيد ، وفى هذا الصـــدد يخاطب الحكمدار بقوله : —

« نحن فى ضيق من المال ولا يخفى على علمكم رواج ذلك الصمغ ، فان كان لم يصل بعد الى المحروسة ، فاكتبوا الى مدير كردفان وأكدوا عليه بأن يسرع بارساله وهذا ما لزم اشعاركم به » . (٢١)

ولكى يزيد محمد على من كمية الصمغ المجلوبة الى مصر ، أرسل بعض الأفراد الى السودان ، وذلك للاشراف على شون الصـــمغ وعلى سرعة شحنه الى مصر (٢٢) وكان من هؤلاء الأفراد شاكر قبودان ، والصاغقول عبد الله افندى والصـــاغقول اغاسى امين افندى ، وقد تقرر أن يكون مقر الأول فى كردفان ، والثانى فى دنقلة والثالث فى وادى حلفا ، وأما شونة أسوان فقد تعين لها أمين جمركها ،للقيام بهذه المهمة، الى جانب عمله(٢٣).

وبعد أن تولى هؤلاء مناصبهم الجديدة حثهم محمد على ، على الاهتمام بجلب الصمغ ، ويتضح ذلك من قوله :

« عليكم أن تبادروا بشحن الصمغ بمجرد وصولكم الى الجهات التى عينتم بها ، واحذركم التقصير ، فاذا قصرتم ، فســـوف تلاقون منا اللوم

---

(٢٠) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٠٩ معاونة أقاليم ، وثيقة ١٥٣ فى ١٣ صفر عام ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(٢١) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٠٦ صادر شورى المعاونة — وثيقة ٢٣٠ فى ٢٥ ربيع آخر سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(٢٢) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٠٩ معاونة أقاليم وثيقة ٦٧٨ فى ٨ رجب سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(٢٣) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٠٩ معاونة أقاليم وثيقة ٦٥٣ فى ٢١ جماد ثان سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

والتوبيخ والعقاب ، واذا وجدتم انتم بعض التقصير من حكام البلدان فعليكم أن تنبهوا هؤلاء الحكام الى ذلك ، وفى حالة عدم استجابتكم لهذا التوجيه ، فاننى سوف اتخذ اللازم واطلب منكم أن توافوننى بكشف يتضمن مقدار ما تم شحنه من الصمغ مرة كل عشرة أيام » (٢٤) .

لم يقصر محمد على تحذيره على مأمورى جلب الصمغ ، بل حذر ايضا حكمدار السودان بقوله :

« ان الصمغ رائج جدا فى الاسكندرية وان الضائقة المالية المتوقعة من المال سوف تزول بهمتكم كما هو مأمول ، وعليكم عدم التأخير فى ارسال الصمغ ، بل يجب ارساله دفعة واحدة ، واطلب شحنة بالقوارب عاجلا وارساله الى مصر على وجه السرعة » (٢٥) .

على الرغم من سياسة الاحتكار التى فرضها محمد على ، على تجارة الصمغ ، الا انه سمح لتجار بعض الدول الأوربية بالاتجار فيه على شرط أن يحصل التاجر على تصريح مسبق يخول له حرية التجارة فى الصمغ ، والا صودر ما معه ، فعند ما قام المسيو ماربورفو Marborfou النمساوى الجنسية ، بشراء كمية من الصمغ ، وحاول المرور بها من جمرك اسوان ، منعه امين الجمرك من المرور ، وذلك لفقدانه التصريح الخاص به ، ولكن لما علم محمد على بذلك امر امين الجمرك ان يسمح له بالمرور ، بعد أن يستوفى الرسوم الجمركية المقررة من هذا التاجر عينا اذا تعذر عليه دفعها نقدا . (٢٦) وفى عام ١٨٤٤ اشترى أحد التجار الفرنسيين من كردفان كمية من الصمغ بلغت ٧٢٠ قنطارا ، وعند مروره بهذه الكمية من جمرك اسوان

---

(٢٤) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٠٩ معاونة اقاليم وثيقة ٦٥١ فى ٢١ جماد ثان سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(٢٥) دفتر ٢١٠ صادر ديوان المعاونة ، وثيقة ١١٩٠ فى ٢٧ ربيع آخر سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(٢٦) دفتر ٣٦٩ معية تركى — وثيقة ٤٠٠٤ فى ١٤ رجب سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

منعه أمين الجمرك (٢٧) ، ويبدو أن هذا التاجر لم يكن لديه تصريح يخول له نقل هذا الصمغ ، أو ربما لعدم مقدرته على دفع الرسوم الجمركية ، وعند ما حاول المسيو ثيبو الفرنسى الجنسية المرور من جمرك الاسكندرية وكان معه كمية من الصمغ بلغت حوالى ١٧٠٠ قنطارا ، منعه أمين الجمرك من المرور ، بناء على تعليمات المالية ، التى كانت تقضى بمصادرة الصمغ الذى يمر بدون تصريح مسبق ولكن لما علم محمد على بذلك طلب من أمين جمرك الاسكندرية أن يسمح له بأخذ ألف قنطارا فقط ، وذلك حفاظا على استمرار العلاقات الودية بين مصر وفرنسا وعلى شرط الا يتكرر هذا العمل مرة ثانية (٢٨) .

من المعروف أن علاقة مصر بفرنسا كانت طيبة للغاية ويتضح ذلك من المعاملة الحسنة التى كان يلقاها التجار الفرنسيون من قبل السلطات المصرية ، فعندما ضبطت مع أحد التجار الفرنسيين كمية من الصمغ صودر جزء منها لحساب الحكومة وترك الباقى لهذا التاجر حيث بلغت كميته ٦٠ قنطارا (٢٩) .

حذر محمد على مدير كردفان من عدم الاهتمام بارسال كميات الصمغ المطلوبة ، ويتضح ذلك من خطابه اليه والذى جاء فيه ما نصه :

« أعلم أننا أوفدنا اليك القواص حسين الملا ، فاذا كنت بحكم قلة ادبك لم ترسل هذه الأشياء والمواد حتى الآن عليك بارسالها فى الحال ، ووفينى مع القواص بخبر ارسالها ، والا فتأكد أننا سنخفيك هناك ، واياك ثم واياك ومعاندة احمد باشا (حكمدار السودان) فلا بد من اطاعة اوامره

---

(٢٧) دفتر ٣٧٨ معية تركى — وثيقة ١٦٠١ فى ٢١ رجب سنة ١٢٦١هـ الموافق ١٨٤٤ م .

(٢٨) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٩٠ صادر ديوان المعاونة ، وثيقة ٢٤٨ فى ١٧ شوال سنة ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

(٢٩) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٩٣ صادر ديوان المعاونة ، وثيقة ٤٢٨ فى ٧ محرم سنة ١٢٦٢ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

جميعها » (٣٠) واضح من هذا الخطاب مدى اهتمام محمد على بجلب الصمغ حتى انه لا يتورع عن انزال اقصى العقوبة على المقصرين فى جلبه .

وفى نفس الوقت طلب من مدير دنقلة أن يصنع عددا من الزنابيل الخاصة بتعباة الصمغ ، من زعف النخيل الموجود بوفرة فى دنقلة ، بدلا من أن يستخدمها الناس فى الوقود أو أن يصنعوا منها حصرا لافتراشها على الأرض (٣١) ، والى جانبها استخدمت أيضا الجلود والزكايب والقفف زيادة على ذلك فان محمد على ، طلب من مدير دنقلة أن يرسل الى مدير كردفان ١٠٠٠ كيسة من النقود كى يستخدمها فى شراء الصمغ المطلوب ، ولكن مدير دنقلة لم يرسل الا ٥٠٠ كيسة ، مما اضطر محمد على أن يحذره بقوله :

« اقول لك ان هذا الصمغ رائج وكثرة محصوله موجبة وذلك لازدياد منفعة الحكومة ، فارسال ذلك المبلغ من الصمغ على وجه السرعة امر لازم ، فما هو قصدك بارسال ٥٠٠ كيسه فقط ، فهل تصدك أن تنقص منفعة المرى بنقص وارد المحصول مع رواجه ، عدا ما فعلته فى مديريتك من الضار ، أحذرك بضرورة التعجل بالخمسمائة كيسة الباقية ، واحذرك الا تؤخر الصمغ دقيقة واحدة ، ولو حدث ذلك فانك لم تخلص من يدى بأى وجه من الوجوه » (٣٢) .

ولما تسلم مدير كردفان النقود المطلوبة ، بدأ فى شراء الصمغ وبدأ محمد على بالتالى يستعجله فى ارسال المزيد منه وذلك واضح من خطابه اليه والذى جاء فيه ما يلى :

---

(٣٠) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٣٨٧ — معية تركى وثيقة ١٠٢ فى ١٥ ربيع اول سنة ١٢٦١ الموافق ١٨٤٥ م .

(٣١) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٣٧٨ معية تركى وثيقة ١٥١١٧ فى ١٠ رجب سنة ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

(٣٢) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٣٩٣ صادر المعية ، وثيقة ٥٧ فى ٢٢ رمضان سنة ١٢٦١ الموافق ١٨٤٥ م .

« يا مدير كردفان ، ابذل جهدك لتوريد الصمغ بالزنابيل التى ستأتى لك من الخرطوم او من دنقلة ، أو التى يمكن الحصول عليها من مديريتك، أو بالجلود وابعث الينا كشفا على وجه السرعة بكل مقدار تورده (٣٣) » .

كان من نتيجة هذه الاجراءات التى اتخذها محمد على ، أن بلغت كمية الصمغ التى وردت الى شونة الدبة ، نحو ١٨٨١٩ قنطارا ، ولكن بالتقييم على هذه الكمية ، وجد أن وزنها يبلغ ١٦٤١٩ قنطارا ، أى انها نقصت ٢٤٠٠ قنطار ، لكن لما علم محمد على بذلك طلب من حكمدار السودان ، اجراء التحقيق فورا ، لمعرفة الأسباب التى أدت الى نقص هذه الكمية من الصمغ (٣٤) فمن المحتمل أن يكون الجمالة قاموا بسرقتها أو ربما تكون هذه الكمية قد تبعثرت نتيجة لعملية تحميل الجمال والنقل من مكان لآخر ، ومن المرجح أن يكون هذا النقص فى كمية الصمغ ناتجا عن جفافه بسبب تعرضه لحرارة الشمس .

واصل محمد على مخاطبته الى مدير كردفان ، يطلب منه الاهتمام بارسال الصمغ حتى لايتعرض للبعثرة والتلف ويتضح ذلك من الخطاب التالى : —

« فبوصول أمرى هذا اليك ابرز ما عندك من الجهد والاهتمام وانقل الصمغ الموجود فى تلك الجهة الى دنقلة بأجمعه ، ولا تترك منه حبة واحدة ، وعرفنى بأنك آتيت على آخره وأرسله كله وهذا مطلبى » (٣٥) .

يبدو أن مدير كردفان كان قد تضايق من كثرة الخطابات التى يرسلها له محمد على وخاصة ما يتضمنه بعضها من عبارات قاسية ، مما اضطر

---

(٣٣) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٣٩٣ صادر المعية ، وثيقة ١٩٩ فى ١٠ القعدة سنة ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

(٣٤) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٩٢ معية تركى وثيقة ٢٢٢٢ فى ١١ رمضان سنة ١٢٦٢ الموافق ١٨٤٥ م

(٣٥) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٤٣٢ صادر المعية ، وثيقة ٤١٣ فى ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٦٣ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

محمد على الى مخاطبته وافهامه بأن يكون واسع الصدر ، ويتضح ذلك من قوله :

« يا مدير كردفان لا يضيق صدرك بهذا التكليف ، واخبرنى حقيقة الحال حتى اعرفه ، فأعمل الأسباب الموجبة ، لازالة التعويق والتأخير الحاصل فى مسألة توريد الصمغ واجتهد فى الاكثار من توريده ، فاستحلفك بحبك لله تعالى أن تعرفنى سريعا الجواب » (٣٦) .

بالاضافة الى ذلك فان محمد على طلب من حاكم السودان ، أن يجعل الجنود تساهم فى جمع الصمغ ، من اماكن وجوده وأن يعملوا تحت اشراف ناظر مصلحة الصمغ ، الذى كان يقيم فى مديرية كردفان (٣٧) من المرجح أن يكون السبب فى تعيين الجنود للقيام بمهمة جمع الصمغ هو ارسال كميات كبيرة من الصمغ ومن المحتمل أيضا أن يكون السبب فى ذلك هو مساعدة مدير كردفان فى ارسال اكبر قدر ممكن من الصمغ .

وكان من نتيجة مساهمة الجنود فى جنى الصمغ ، اثره الفعال فى زيادة الكميات المرسلة الى شونة الدبة ، وقد زاد من حدة هذا التراكم النقص الواضح فى عدد المراكب المخصصة لنقل الصمغ التى كان استخدامها مرهونا بارتفاع وانخفاض منسوب المياه فى النهر ، فاذا كان منسوب المياه منخفضا توقف النقل بالمراكب نهائيا ، واذا كان منسوب المياه مرتفعا، استمرت حركة نقل الصمغ . وكان قد اقترح ان ينقل الصمغ على ظهور الجمال فى موسم انخفاض مياه النهر ، ولكن لما عرض الأمر على ، محمد على رفضه ، خوفا من بعثرة الصمغ نتيجة لعملية التحميل والنقل من مكان لآخر (٣٨) .

استمر استغلال محمد على للصمغ منذ عام ١٨٤٣ ، وحتى عام ١٨٤٨ ،

---

(٣٦) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٣٩٣ صادر ديوان المعية ــ وثيقة ٤٥٧ فى ١٢ محرم سنة ١٢٦٢ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

(٣٧) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٩٩٤ صادر الافادات ، وثيقة ٧٥٥ فى ٢٣ جماد ثان سنة ١٢٦٢ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

(٣٨) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٤٣٨ ، معية تركى ، وثيقة ١٢٨١ فى ٢٨ صفر سنة ١٢٦٤ هـ الموافق ١٨٤٧ م .

فى هذا العام سمح لبعض التجار الأوربيين كالفرنسيين والانجليز بالاتجار فى الصمغ ، والدليل على ذلك انه عندما اعترض أمين جمرك مصوع أحد التجار الانجليز ومنعه من المرور بما معه من صمغ اتصل قنصل بريطانيا بمحمد على ، الذى أمر أمين الجمرك بأن يسمح لهذا التاجر بالمرور من الجمرك ، على شرط أن يدفع الرسوم الجمركية المقررة والبالغ قيمتها ١٢٪ ، وفيما بعد نجد محمد على يأمر حكمدار السودان بعدم منع اى احد من التجار من الاتجار فى الصمغ وخاصة من الأوربيين (٣٩) من الملاحظ ان محمد على الغى الاحتكار تدريجيا ولم يلغه دفعة واحدة ، حتى لا تتاثر ظروفه المالية بهذا الالغاء .

لقد تراوحت أثمان شراء الصمغ فيما بين ٢٥٠ ، ٢٦٠ قرشا للقنطار ، وتراوحت أثمان البيع فيما بين ٢٧٥ ، ٣٠٠ ، ٣٢٥ قرشا للقنطار الواحد (٤٠)

من الجدول التالى يمكن التعرف على كميات الصمغ التى تم جلبها فى عصر محمد على وهى لم تكن على درجة كبيرة من الضخامة ، بحيث لاتتناسب مع كميات الصمغ الموجودة بالسودان :

السنة		الصنف
١٢٥٩ / ١٨٤٣	١٩٢٦ رطلة ، ٢٠٩٤٠ قنطارا	صمغ
١٢٦٠ / ١٨٤٤	١٩٤١٨ قنطارا	صمغ
١٢٦١ / ١٨٤٥	٣٧٣٧٨ قنطارا ، ٨٤ رطلا ، ٦١١ رطلة	صمغ
١٢٦٢ / ١٨٤٥	٢٨٧١١ قنطارا ، ٩٩ رطلة	صمغ
١٢٦٣ / ١٨٤٦	٩٦٥٩٠ قنطارا ، ٣٣ رطل	صمغ
١٢٦٤ / ١٨٤٧	٧١١٠١ قنطارا ، ١٥٩ رطل ، ٥٠٠ رطلة	صمغ
١٢٦٥ / ١٨٤٧	٩٣٥٨٤ قنطارا ، ١٥٩ رطلا	صمغ
١٢٦٦ / ١٨٤٩	٣٢٦٠٦ قنطارا ، ٤٩ رطلا	صمغ (٤١)

(٣٩) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٤٥٨ صادر المعية ، وثيقة ٥١٧ فى ١١ شوال سنة ١٢٦٥ هـ الموافق ١٨٤٨ .

(٤٠) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٥٩٠ ديوان الكتخدا ، وثيقة ١٨٨٧ فى ٢٦ ربيع اول سنة ١٢٦٥ هـ الموافق ١٨٤٨ م .

(٤١) انظر محافظ ابحاث السودان فى الفترة ما بين ١٢٣٥هـ ــ ١٢٦٦هـ

٤ ــ السنامكى :

السنامكى من الغلات الزراعية التى استغلت بمعرفة محمد على ولكن استغلالها جاء متأخرا ، يبدو لأنها لم تكن رائجة من الناحية التجارية كبقية الغلات ، وقد شجع ذلك التجار الأوربيين على الاتجار فيها ، ففى عام ١٨٤٣ جلب تاجر نمساوى من السودان كمية منها ، بلغت حوالى ٧٦ قنطارا ، ولكن عند مروره من جمرك اسوان منعه امين الجمرك ، مع انه ، كان قد سدد الرسوم الجمركية المقررة ، فاضطر أن يشكو الى قنصل النمسا بالقاهرة ، الذى اتصل بدوره بالسلطات المصرية ، وطلب منها أن تسمح لهذا التاجر بالمـــرور (٤٢) .

واستند فى ذلك الى انه لم يعد هناك مبرر يحرم على هؤلاء التجـــار الاتجار فى السنامكى ، وفى غيرها . ومن المرجح أن يكون السبب فى عدم مروره من الجمرك هو عدم وصول تعليمات صريحة الى امين جمرك اسوان ، الذى طلب من الحكومة المصرية أن تفيده بشأن الاتجار فى السنامكى بالنسبة للتجار الأجانب من عدمه (٤٣) .

ولكن فيما بعد اتضح أن السنامكى كانت من الغلات التى احتكرها محمد على ، ويتضح ذلك من خطابه الى مدير دنقلة الذى جاء فيه ما يلى :

« عليكم بمجرد وصول أمرى هذا أن تبادروا الى تعيين طائفة من الناس يتولون جمع هذا المحصول اذا كان الوقت قد آن لجمعه ، وولوا هذا الأمر كل عنايتكم واهتمامكم ، ووافونا بمقدار ما يجمع منه ، ولا تستعلموا منا عن المقدار المطلوب توريده من هذه السنامكى ، فكلما زادت الكمية الموردة منه كان سرورنا منكم لذلك جد عظيم » (٤٤) .

---

(٤٢) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٣٦٩ معية تركى ، وثيقة ٤٣٣٠ فى ١٥ شعبان ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(٤٣) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٣٦٩ معاونة ايرادات وثيقة بدون رقم فى ٢٧ رجب سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(٤٤) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٣٧٧ معية تركى ، وثيقة ١٢٦٩ فى ١٠ ربيع ثان سنة ١٢٦٠ هـ الواق ١٨٤٤ م .

ولكى ينفذ مدير دنقلة مطلب محمد على انشأ ثلاث شون لتخزين السنامكى التى يتم جمعها ، وقد تمكن هذا المدير ، بعد فترة من العمل المتواصل من جمع كمية كبيرة من السنامكى بلغت ، ١٠٫٥٠٠ قنطار ، أرسلت الى مصر واستمر المدير فى ارسال الكميات التى يتم الحصول عليها حتى عام ١٨٤٧ ، ففى هذا العام أصدر الوالى تعليماته بوقف تصدير السنامكى الى مصر على شرط أن تخزن كمياتها التى تم جمعهـــا فى الشـــون الخاصـــة بها حتى لا تتعرض للتلف .

بعد فترة طلب ناظر المالية من مدير دنقلة أن يترك السكان يتصرفون فى محصول السنامكى كما يشاءوا (٤٥) .

يبدو أن التجار لم يقبلوا على شرائها ، فلو كانوا اقبلوا عليها لجلب محمد على منها كميات كبيرة ، وما كان قد أصدر تعليماته بوقف جلبها وعلى الرغم من التعليمات الصادرة الى مدير دنقلة التى كانت تقضى بوقف جمع السنامكى . الا أن التجار ظلوا يوردون الى شون دنقلة الكميات التى يجمعونها من السكان ، مما اضطر محمد على أن يصدر أمرا الى مدير دنقلة يخبره فيه بأن يصادر كل ما يجلبه التجار من هذه الغلة (٤٦) بالاضافة الى ذلك فانه طلب أيضا أن يترك للسكان حرية التصرف فى محصولها (٤٧) .

من الملاحظ أن محمد على ، وافق على سياسة الغاء الاحتكار ، ولكن هذه الموافقة كانت على حسب ما يتمشى ومصلحته الخاصة . بمعنى انه اذا كانت هناك غلة رائجة تصر التجار فيها على الحكومة واذا كانت غير رائجة ترك للسكان حرية التصرف فى انتاجها .

---

(٤٥) دفتر ٤٣٨ معية تركى ، وثيقة ١٥٦٦ فى ٢١ ربيع أول سنة ١٢٦٤ الموافق سنة ١٨٤٧ م .

(٤٦) محفظة ٣ أوامر للمالية ـــ وثيقة ٣١٢ فى غرة القعدة سنة ١٢٦٤ الموافق سنة ١٨٤٧ م .

(٤٧) دفتر ٤٣٨ معية تركى ، وثيقة ١٥١٦ فى ٢١ ربيع أول ســـنة ١٢٦٤ هـ الموافق ١٨٤٧ م .

٥ ــ النيــلة :

جلب محمد على كميات قليلة جدا من النيلة السودانية الى مصر ومن المرجح ان يرجع ذلك الى أن النيلة السودانية كانت أقل جودة من النيلة المصرية ، وربما يرجع السبب فى ذلك أيضا الى أن النيلة فى مصر كانت تزرع على نطاق واسع ، هذا احتمال على جانب كبير من الصواب ، لأن محمد على كان يستورد بذورها من الهند والصين الى جانب البذور البلدية . وكان ارتفاع أسعارها يتحكم فى مقدار المساحة المراد زراعتها بالنيلة ، فاذا كان سعر النيلة مرتفعا ، زادت المساحة المزروعة منها ، واذا كان منخفضا قلت المساحة المزروعة ، حتى أنه كان فى السنوات التى يكون فيها سعر النيلة منخفضا كان يترك للزراع حرية الزراعة فيها ، ويتضح ذلك من قول محمد على الى ناظر الزراعة : ــ

« وقد اتضح من الكشف المحفوظ بمصلحة الأصناف ، أن الأمر يقضى بالاستغناء عن زرع هذا الصنف (النيلة) وان تزرع بدلا منه أصناف أخرى ، فاذا ما أمكن تصريف النيلة التى ستنتج فى العام القادم يحدد مقدار النيلة التى ستزرع حسب الحاجة ، وانه يجب أن تشترى فى النيلة فى هذه السنة بأسعار السنة الماضية لئلا يتراكم على المزارعين بواقى ، لأن المزارعين الأغنياء تأتى محصولاتهم وافرة بعكس الفقراء منهم ، فاذا ما نقص سعر محصولهم تضرروا من جراء ذلك واصابهم عذر ، الأمر الذى حمل المجلس على اصدار قرار لمأمورى الوجه البحرى ، والأقاليم الوسطى بشأن صرف النظر عن تدبير أو توفير تقاوى هذا الصنف للزراعة ، وعليه نخطركم بانه فى حالة ما اذا اشتريت النيلة بثلاثة أسعار ، عاد ذلك بالضرر على المزارعين الفقراء ، حيث لايستطيعون بعد ذلك أن يدبروا أمرهم ، فيجب أن يترك للفلاحين الخيار فى زرع هذا الصنف (٤٨) » .

---

(٤٨) د . أحمد أحمد الحتة : تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على الكبير ص ٢٢٢ .

٦ ــ الاقمشـــــة :

جلب محمد على كميات من الاقمشة التى كانت تصنع فى بعض البلدان السودانية ، مثل دنقلة وسنار ، فكان قد طلب من مدير دنقلة أن يرسل له حوالى ثمانية آلاف مقطع من القماش وذلك لاستخدامها كملابس لجنود الجهادية . وقد تميز قماش دنقلة بالمتانة ، عن قماش سنار وبربر واقليم الجعليين،وقد تراوح ثمن المقطع من هذا القماش فيما بين ٨٠٧ قرشا (٤٩)

٧ ــ دودة الحرير :

لم تسلم دودة الحرير من استغلال محمد على لها ، فعندما علم بوجودها بكثرة فى السودان ، قرر ضرورة العمل على الاستفادة منها وكان قد طلب من مدير كردفان أن يرسل الى مصر كمية من ديدان الحرير ، وعلى الفور قام المدير بارسال كمية من هذه الديدان الى مصر ، ولكنها تعفنت فى الطريق قبل أن تصل الى الوالى ، ويبدو أن السبب فى تعفنها يرجع الى عدم العناية فى حفظها وخاصة أن وصولها الى مصر كان يحتاج الى وقت طويل ، ولكن لما علم محمد على بما أصاب الديدان من تعفن طلب من مدير كردفان أن يحصل على كمية اخرى من هذه الديدان ، على شرط أن يجرى عليها التجربة التالية قبل ارسالها الى مصر ، وهى أن يقوم بتقسيم كمية الديدان المراد ارسالها الى مصر الى سبعة أقسام بعد ذلك يضع كل قسم من هذه الأقسام فى داخل قطعة من القماش ، ثم تغمس القطعة الأولى بما فيها من ديدان فى ماء مغلى مرة واحدة ، وتغمس القطعة الثانية مرتين والثالثة ثلاث مرات ، والرابعة أربع مرات وهكذا حتى آخر الأقسام ، وبعد عملية الغمس هذه ، تنشف بعض القطع فى الشمس وينشف الباقى منها فى الظل ، ثم توضع كل قطعة بما فيها من ديدان فى وعاء خاص ، بحيث يلصق عليه ، ورقة تتضمن كافة المعلومات الخاصة به . وقد ذكره محمد على بطريقة اخرى وهى انه بعد اعداد قطع قماش الدمور بما فيها من ديدان تغمس فى ماء مغلى مضاف اليه رماد

---

(٤٩) محفظة ٢٦٢ عابدين ، ملف السودان ، وثيقة ٨٣ فى ٢٥ ربيع ثان سنة ١٢٥٣ هـ الموافق ١٨٣٧ م .

خشب البلوط وماء الجير ، وتتم عملية الغمس بنفس الطريقة السابقة، وكان ذلك بغرض حماية هذه الديدان من التعفن حتى يمكن وصولها الى مصر ، ويبدو أن محمد على لم يكن متأكدا من نجاح هذه العملية ، لذلك نجده يستخدم طريقتين ، فلو فرض وفشلت الأولى ربما تنجح الثانية (٥٠) .

لم يقتصر وجود هذه الديدان على كردفان وحدها ، بل وجدت بكثرة فى فازوغلى وعطيش والقلابات ، حيث كانت توجد على اشجار الخشخاش فكانت تعيش فى شقوق هذه الأشجار ، كما كانت تعيش تحت فروعها وخاصة فى الأماكن التى لا يتطرق اليها الهواء وكان من المعتاد أن تضع شرانقها ابان فصل الخريف . والى جانب ارسال حاكم السودان للديدان فانه أرسل أيضا كمية من شرانق هذه الديدان (٥١) .

يبدو أن التجارب التى أجريت بالقاهرة على هذه الديدان والشرانق لم تأت بالنتيجة المرجوة لذلك طلب محمد على من حكمدار السودان ، أن يرسل الديدان بدلا من الشرانق ، ويتضح ذلك من خطابه الذى جاء فيه ما يلى :

«ان تلك الديدان ستكون نافعة مفيدة جدا ، فبادروا ، حسب همتكم الى ارسال شىء منها حسبما هو مذكور فى طلب كتابنا هذا (٥٢) » .

يبدو أن محمد على عندما أرسل بذور التوت الى السودان كى تزرع هناك ، كانت بغرض أن يتغذى دود القز على أوراقها ، وحتى يتمكن هو بالتالى من جلب كميات كبيرة من الحرير التى سوف يتم استخلاصه من شرانق هذه الديدان .

---

(٥٠) دفتر ٢٠ معية تركى — وثيقة ٢٨٥ فى ٢٨ جماد أول سنة ١٢٤١ هـ الموافق سنة ١٨٢٥ م .

(٥١) محفظة ٢٦٢ عابدين فى ١٢ رمضان سنة ١٢٥٣ هـ الموافق ١٨٣٧ م .

(٥٢) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٠٨ صادر ديوان معاونة أقاليم ، وثيقة ٧٧٠ فى ٣ جماد سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

ومن هذا يتضح ان محمد على حاول من جانبه النهوض بالزراعة السودانية ، وذلك عن طريق ادخال غلات جديدة لزراعتها هناك ، مثل الأرز ، والقصب والتوت ، وكان ذلك عن طريق تزويد الفلاحين السودانيين ، بالأدوات الزراعية الحديثة ، كاسلحة المحاريث او الخبرة الفنية ، وتعتبر هذه الاجراءات على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للزراعة السودانية ، وللسودانيين انفسهم ، لأنها لم تكن متوفرة لديهم من قبـــل .

الفصل الخامس

التقدم العمرانى فى افريقيا

عاشت معظم البلدان الافريقية فى مطلع القرن التاسع عشر فى ظل نظام تبلى متخلف،تمثل فى قيام الدويلات والممالك الصغيرة التى عاشت كل منها على حسب مايحلو لها ، بعيدة عن مسايرة التطور الحضارى والتقدم العلمى، ولكن حينما خضعت هذه البلدان للسيادة المصرية تحققت لها مكاسب عديدة كان منها توحيد قبائلها فى وحدة سياسية واحدة وكان منها ادخال التنظيم الادارى الحديث الى هذه البلاد والعمل على النهوض بالزراعة فيها والاهتمام بالصناعة ، وبناء السفن والعمارة وحفر الآبار ، والكشف عن منابع النيل، والعمل على نشر التعليم ، وسوف يتضح لنا ذلك جليا من دراستنا لهذه العناصر كل على حدة .

١ ــ الادارة :

بعد أن استقرت الأمور لاسماعيل بن محمد على فى السودان ، وبعد ان تكون هيكل للحكومة المركزية هناك ، كان لابد من تكملة عناصر هذه الحكومة ، حتى يمكن لها ادارة شئون البلاد طبقا لما هو متبع فى مصر وفى غيرها من بلدان العالم المتحضر ولكى يحقق اسماعيل هذا العمل على الوجه الأكمل اتخذ عدة اجراءات كان منها : ــ

ــ تقسيم البلاد السودانية الى عدد من المديريات وجعل على راس كل منها مدير ، وقسمت كل مديرية الى أقسام جعل على راس كل منها أيضا ناظرا وقسم أيضا كل قسم الى أخطاط جعل على راس كل منها حاكما (١)

---

(١) احمد احمد سيد احمد ، دكتور ، رفاعة الطهطاوى ص ٤٦ .

وقد ضم كل خط من هذه الاخطاط عددا من القرى يتراوح فيما بين ١٠ ، ١٥ ، ١٧ قرية ، وقد زود حاكم الخط بحصان ليركبه اثناء مروره على مجموعة القرى التابعة له ، بالاضافة الى تزويده بعشرة من الفرسان العرب وبعشرة من المشاه المغاربة ، وبخمسة من جنود الشايقية ، وقد عين على كل عشرة من الجنود شخصا برتبة كاشف أى رئيس جماعة (٢) .

بالاضافة الى ذلك فان اسماعيل فرض ضريبة على كل قرية ، قدرت بحوالى الفى ريال ، وقد روعى فيها مبدأ العدالة بحيث تتناسب ، ودخل كل فرد فمن أجل ذلك قسمت المنازل الى طبقات ثلاث كانت على النحو التالى ، العليا وهى المنازل التى تقطنها الطبقة الغنية ، والوسطى وهى المنازل التى تقطنها الطبقة الوسطى ، والدنيا ، وهى المنازل التى تقطنها الطبقة الفقيرة ، وكانت كل طبقة من هذه الطبقات ، تدفع من الضرائب ما يتناسب مع دخلها ، وكان الغرض من جمع هذه الضرائب هو الانفاق منها على القوات العسكرية ، ورجال الميرى ، والموظفين (٣) .

ولكى لا تتهرب أية قرية من دفع الضرائب المقررة عليها امر اسماعيل باجراء احصاء لعدد القرى التى تخضع للادارة المصرية فى السودان فوجد أن عدد القرى التابعة لكردفان تبلغ حوالى ١٥٠٠ قرية ، والقرى التابعة لاقليم فازوغلى تبلغ حوالى ١٠٠٠ قرية ، والقرى التابعة لاقليم سنار والحلفاية تبلغ نحو ٣٠٠٠ قرية (٤) .

زيادة على ذلك فان اسماعيل شكل هيئة من المعاونين له فى ادارة حكم البلاد ، وقد تضمنت هذه الهيئة وكيل الحكمدارية ، وقائد عام الجند ، ورؤساء المصالح الممثلين فى ناظر المواشى ، الذى كان مسئولا عن تنمية الثروة الحيوانية فى السودان ، وناظر القماش وهو الذى كان مسئولا عن المهمات الميرية وناظر الفابريكات (المصانع) وهو المسئول عن الصناعة،وناظر المبانى وهو المسئول عن اقامة الأبنية والتحصينات والثكنات

---

(٢) محفظة ٣ ، معية سنية وثيقة ٥٨ ، فى ٢٣ ربيع أول سنة ١٢٣٧ الموافق ١٨٢١ م .

(٣) محفظة ٣ معية سنية نفس الوثيقة .

(٤) دفتر ٢٠ معية تركى ، وثيقة ٣٦٩ فى ٨ رمضان سنة ١٢٤١ هـ الموافق ١٨٢٥ م

العسكرية ، بالاضافة الى مأمور التقارير ومأمور جمع الضرائب (٥) وكان من المتبع أن يجتمع هؤلاء المعاونون وعلى رأسهم اسماعيل ، فى شكل مجلس للمشورة ، وذلك لمناقشة جميع المسائل التى تتعلق بالنهوض بالبلاد فى كافة المجالات ، ووضع الحلول الملائمة لها ، وكان فى نهاية كل اجتماع يتخذ هذا المجلس عدة قرارات ، وتوصيات هامة . ولقد عثرت على بعض توصيات احدى اجتماعات هذا المجلس فى فترة تالية لحكم اسماعيل ، والذى انعقد فى يوم ٨ محرم سنة ١٢٤٢ الموافق ١٨٢٦ م ، وهى على النحو التالى :

ـ لقد تم فى هذا الاجتماع مناقشة موضوع العمل على عمران البلاد السودانية ، وذلك بعدة عوامل ، كان منها ارجاع السكان الهاربين اليها ، وذلك بتخفيض عبء الضرائب المقررة عليهم ، واحتساب الاشياء (ذرة وسمن وقماش) التى كانت قد أخذت منهم فى صورة اتاوة من اصل الضريبة المقررة عليهم ، والعمل على تنشيط زراعة القطن ، وخاصة فى أرض الجزيرة ، وذلك لا يتأتى الا بانشاء عدد من السواقى .

ـ وتمت كذلك مناقشة ميزانية سنار وضواحيها (دخل المديرية) والتى بلغت قيمته حوالى ١١٧٠٨ كيسة ، وكان هذا المبلغ لايكفى مرتبات جنود الجهادية والادلة والمشايخ والخولة والصناع وموظفى الحكومة،مما اضطر اعضاء المجلس أن يقرروا العمل على زيادة هذا الدخل وذلك لا يتأتى الا بمهاجمة اقليم عطيش التابع للحبشة وذلك لسببين ، اولهما أن هذا الاقليم كان بمثابة وكر للهاربين من سنار ، وثانيهما انه كان غنيا بثرواته ، وقد وافق اعضاء المجلس جميعهم ، عدا عضو واحد هو محمود أفندى الذى قال « اما انا فأمتنع الآن عن الموافقة لأن مسألة عطيش تحتاج الى شىء من التفكير » ويبدو أن هذا العضو كان يخشى الصدام مع الحبشة ، فربما كان يرى ضرورة عرض الموضوع على محمد على . وكان عضوا آخر قد رد عليه بقوله « ان مولانا قد سلم الينا جزيرة سنار فكيف يكون لنا ان نساله نقودا ، فعلينا أن نجتهد ما استطعنا فى كفاية انفسنا بفضل ولى النعم » .

---

(٥) محفظة ١٩ بحريرا ، وثيقة ٢٢ فى محرم سنة ١٢٤٢ هـ الموافق١٨٢٦م.

والى جانب مناقشة الموضوعات السابقة ، فقد ناقش المجلس عدة موضوعات كان منها موضوع فشل زراعة البن والأفيون ، فاتضح للمجلس أن السبب فى فشل زراعة هاتين الفلتين ، يرجع الى عدم ملائمة مناخ السودان لهما ، وبالتالى وافق المجلس على الغاء زراعتهما . وناقش المجلس أيضا ارسال عدد من أبناء السودان الى مصر ليتعلموا مهنة دباغة الجلود ، وذلك لعدم وجود امكانيات لصناعتها فى السودان ، كما ناقش المجتمعون أيضا عملية التنقيب عن المعادن التى تقرر وقف العمل فيها لأنه لا يجدى،وقرر المجلس كذلك رفع سعر الأوقية من الذهب الى عشرين فرنسة بدلا من ستة عشر فرنسة * (٦) .

استمر هذا التنظيم الادارى للسودان ، معمولا به حتى عام ١٨٤٣ ، ففى هذا العام أصدر محمد على قرارا يقضى بتقسيم السودان الى ستة مديريات عين على كل منها باشا برتبة لواء ، فعين على مديرية التاكة أحمد باشا ، وعين على مديرية فازوغلى سليم باشا ، وعلى كردفان مصطفى باشا وعلى الخرطوم وملحقاتها (بعض أجزاء من بربر واقليم الجعليين) امين باشا، وعلى سنار سليمان باشا ، وعلى دنقلة وملحقاتها حسن باشا ، وكان على رأس هؤلاء جميعا حكمدار السودان (٧) .

٢ ــ الصناعة :

اهتم محمد على بادخال عدد من الصناعات المختلفة الى السودان،وكان من هذه الصناعات ، صناعة النيلة والأوانى الفخارية وصناعة بناء السفن، وغيرها وسوف أتحدث عن كل صناعة من هذه الصناعات على حدة .

فبالنسبة لصناعة النيلة ، فقد انشأ محمد على من أجلها مصنعين فى بربر مع بداية الفتح المصرى للسودان ، لكن لم يكتف مدير بربر بهذين المصنعين بل نجده يطلب فى عام ١٨٢٧ من محمد على أن يرسل له الادوات

---

(٦) نفس المصدر .

(٧) دفتر ٢٠٩ معاونة أقاليم وثيقة ١١٥٨ فى ١١ شوال سنة ١٢٥٩هـ الموافق ١٨٤٣ م .

* فرنسة = غرش .

والمهمات اللازمة لانشاء مصنع ثالث للنيلة ، وقد تضمنت هذه الأدوات والمهمات الاعداد التسالية : —

٣٦ مكبسا ، ٩٠ صندوقا لمصر النيلة ، ٩٠ مجرفة ، ٢٥ قضيب حديد ، ونصف قنطار من خيط الدوبار ، ٦ مقاطع من الشاش ، ٦٠ رطلا من الصلب ، ٢٠ أردبا من بذور النيلة ، ٣ ساعات انجليزية ، ٣ قنطار من الزيت الحار ، وواحد أردب من الحلبة ، ٣ قنطار من الجير السلطانى ، ٣ عمال ، ٣ وزان ، ٣ نجار ، ٢ خريطة . وكان محمد على قد وافق على ارسال كل هذه الادوات والمهمات (٨) يبدو ان اهتمام محمد على بصناعة النيلة يرجع الى استخدامها فى صباغة ملابس جنود الجهادية ، وخاصة جنود الاسطول البحرى ، فمن المرجح أن يكون السبب فى انشاء مصانعها فى بربر الى أن بربر كانت من المديريات التى تجود فيها زراعة النيلة عن غيرها من البلدان السودانية الأخرف .

أما بالنسبة للصناعة الفخارية ، فقد بدأت هذه الصناعة فى السودان منذ عام ١٨٢٧ م ، ففى هذا العام أرسل محمد على الى خورشيد باشا مدير سنار ، كلا من الحاج أحمد والحاج يوسف ، وهما من سكان الجيزة ، وذلك لاقيام بصناعة الأوانى الفخارية فى سنار ، التى تضمنت صناعة القواديس ، والمواجير والبرامات ، زيادة على ذلك فانهما قاما بتعليم أبناء السودان هذه الصناعة حتى تنتشر على نطاق واسع بين السكان ، وكان محمد على قد خصص لكل منهما ماهية شهرية قدرها ١٥٠ قرشا وصرف مقدما لكل منهما مرتب خمسة شهور ، وبعد سفرهما الى السودان تقرر ان يحصل كل منهما على مائة قرش من مرتبه ، ويصرف الباقى لاسرهما بالمحروسة (٩) .

وأما بالنسبة لبناء السفن فقد طلب محمد على ، من مدير سنار ان يقوم بصناعة ٥٠ سفينة ، بعد ان كان قد زوده بكمية من المسامير بلغت ٣٠٠

---

(٨) محافظ أبحاث السودان ، دفتر ٧٣٤ خديو ، وثيقة ١٦٤ فى ٨ شعبان ١٢٤٣ هـ الموافق ١٨٢٧ م .

(٩) دفتر ٧٤٥ ديوان الخديو ، وثيقة ٢١٦ فى ٤ صفر ١٢٤٢ هـ الموافق ١٨٢٦ م .

قنطار (١٠) ولكن بعد أن تم صنعها ، كانت رديئة حيث تخللها الماء بعد فترة قصيرة من نزولها الى النهر ، فلما علم محمد على بذلك أرسل مندوبا من طرفه الى خورشيد اغا مدير سنار ، لكى يقف على الأسباب التى أدت الى رداءة صناعة هذه السفن ، وطلب منه أن يعد تقريرا وافيا يتضمن الأسباب التى أدت الى فشل صناعة بعض هذه السفن (١١) وفى نفس الوقت طلب محمد على من مدير ترسانة دنقلة أن يقوم بصناعة عدد آخر من هذه السفن بعد أن زوده بعدد من المبارد والمناشير وبعض المهمات الأخرى (١٢) .

ويبدو أن السبب فى صناعة هذه السفن كان بغرض استخدامها فى نقل العبيد والصمغ والسنامكى ، وكان من المحتمل أن تؤدى هذه الصناعة الى المساهمة فى انشاء الموانى التى تساعد بدورها فى انشاء المدن على جنبات النيل .

٣ ــ العمارة وحفر الآبار :

انشأ محمد على عددا من المدن كان منها مدينة الخرطوم ، التى كانت قبل الفتح المصرى عبارة عن قرية صغيرة تتكون من عدد من البيوت المبنية من القش والطين وكانت شوارعها عبارة عن حوارى ضيقة وفى حالة قذرة بسبب تراكم أكوام القمامة التى يتكاثر عليها الذباب والبعوض ، وكان يسكنها عدد قليل من السكان (١٣) ولكن بعد الفتح المصرى للسودان شيد المصريون فيها عددا من المبانى الحجرية التى زينوها بالحدائق والشوارع الجميلة . وقد شملت هذه الأبنية سراى الحكومة ومبنى مديرية الخرطوم والمسجد والمستشفى وبعض ثكنات الجيش ، ومعمل البارود وترسانة السفن ، وبذلك

---

(١٠) دفتر ٧٦٦ ديوان خديو وثيقة ٣٤٣ فى ١٧ شوال ١٢٤٥ هـ الموافق ١٨٢٩ م .

(١١) دفتر ٧٨٠ صادر ديوان خديو ، وثيقة ٣١ فى غرة رمضان ١٢٤٦هـ الموافق ١٨٣٠ م .

(١٢) دفتر ٣٧٩ صادر ديوان المعونة ، وثيقة ٤١٢ فى جمادى الاولى سنة ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

(١٣) هرست : النيل : ترجمة احمد الشربينى . ص ٢٨٤ .

اصبحت الخرطوم بعد ذلك ملتقى لتجارة غرب وشرق السودان وبلغ عدد سكانها حوالى ٣٠ الف نسمة فى عصر محمد على ، والى جانبها انشأ المصريون مدينة كسلا التى اصبحت عاصمة لاقليم التاكة وكانت تعتبر حلقة الاتصال بين الخرطوم والمدن الساحلية ، وانشأ المصريون أيضا عام ١٨٤٠ م مدينة فامكه التى تقع على النيل الأزرق والتى تتبع اقليم سنار ا وكانت تبعد عن بلدة الروصيرص مسافة ٢٥ ميلا ، وكانت عاصمة لمديرية فازوغلى (١٤) .

ومن وسائل العمران التى تمت فى السودان فى عهد محمد على ، حفره لعدد كبير من الآبار،وبصفة خاصة فىالمنطقة الواقعة بين كرسكو وأبو حمد، وكان ذلك بغرض توفير المياه اللازمة للسكان الذين يقطنون هذه المناطق ، بالاضافة الى تزويد القوافل والبعثات التى تمر من هذا الطريق ، بما يلزمها من المياه ، وقد بدأ الحفر فى هذه الآبار منذ عام ١٨٤٠م ، وكان محمد على قد عين البكباشى محمد افندى للاشراف على حفر هذه الآبار بعد أن زوده بعدد من القرب بلغ حوالى ٦٤ قربة من الحجم الصغير،٦٤ قربة من الحجم الكبير (١٥) . بالاضافة الى تزويد البعثة بما يلزمها من مؤن وخلافه.

وكان من المهندسين الأجانب الذين عينوا فى هذه البعثة المهندس ايمويك Eimo Bey الذى رفض السفر مع البعثة بحجة أنه يعمل فى منجم الفحم فى السودان ، ولكن لما علم محمد على بذلك أصدر أمرا الى مجلس الشورى لكى يعين مهندسا غيره ، فاختير المهندس حافظ افندى ومعه رزق الخنانى خبير حفر الآبار ، والذى صرف له مقدما مرتب شهرين ، زيادة على حصوله على يومية قدرها ستة قروش (١٦) .

كان محمد على يتابع سير العمل فى حفر الآبار ، فكان يسأل من وقت

---

(١٤) عبد الرحمن الرافعى ، المصدر السابق ص ، ص ١٩٤ — ١٩٦ .

(١٥) دفتر ٢٠٩ معاونة اقاليم ، وثيقة ٦٩٨ فى ١٧ رجب ١٢٥٦ هـ الموافق ١٨٤٠ م .

(١٦) دفتر ٢١٠ صادر ديوان المعاونة ، وثيقة ١٤١٩ فى ٢٠ جماد أول سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

لاخر عن عدد الآبار التى تم حفرها ، وعن المسافة التى تقع بين كل بئر والأخرى وكان يحث رئيس البعثة أن ينجز حفر هذه الآبار فى وقت قصير (١٧) .

لم يقف نشاط محمد على فى هذا المجال عند هذا الحد ، بل أصدر فى عام ١٨٤٣م أمرا عاليا الى ديوان المدارس يطلب منه ضرورة حفر قناة (مجرى مائى) فى طريق العتمور الكائن بين كرسكو وأبو حمد ، وأسند ديوان المدارس بدوره هذه المهمة الى المهندس دارنو ، الذى اصطحب معه كلا من المهندس محمد سليمان ، وعبد الرحمن عمر ، وهما من مدرسة الهندسة ، بالاضافة الى قواص واحد ، وقد زود أعضاء هذه البعثة بالأدوات والمهمات اللازمة لعملية الحفر وكان قد صرف مقدما لدارنو جميع مرتباته (١٨) ، بالاضافة الى تخصيص ذهبية لكى تنقله ومن معه من القاهرة الى أسوان ، ومن هناك يركبون الجمال الى مواقع العمل (١٩) .

لم يقتصر حفر الآبار على منطقة النيل النوبى ، بل امتد الى المنطقة الواقعة بين سواكن وبربر على النيل ، وذلك لحفر عدد آخر من الابار ، وقد عين لكشف هذه المنطقة اسيوزباشى احمد افندى ، الذى كان برفقته حسن خليفة شيخ قبائل العبابدة ، وكان الغرض من ارسال هذه البعثة هو معرفة المناطق التى يمكن حفر الآبار فيها (٢٠) .

٤ ــ الكشف عن منابع النيــل :

بعد أن حقق محمد على معظم أهدافه التى دخل من أجلها افريقيا بقى أمامه هدف واحد ، هو الكشف عن منابع النيل ، ومن المرجح أن يكون السبب

---

(١٧) دفتر ٣٢١ صادر شورى المعاونة ، وثيقة ١٥٤٢ ، فى ٨ ربيع آخر سنة ١٢٥٩ الموافق ١٨٤٣ م .

(١٨) دفتر ٢٠٨٨ وارد ديوان المدارس ، وثيقة ٩٣٥ فى غرة محرم سنة ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(١٩) دفتر ٢٨٩ صادر ديوان المعاونة ، وثيقة ١٦٢٨ فى ٢٨ جماد ثان ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م .

(٢٠) دفتر ٢٠٩ معاونة اقاليم ، وثيقة ٣٩٤ فى غرة ربيع ثان ١٢٥٩ ــ الموافق ١٨٤٣ م .

فى تأخير الكشف عنها راجعا الى أن اهتمامه بالسودان فى بداية حكمه كانت قائمة على جلب ما يمكن جلبه من العبيد والثروة الحيوانية والمعادن والغلات الزراعية ، ولكن هذه الاهتمامات لم تستمر طويلا بل تغيرت منذ عام ١٨٤٠ ، وذلك لاسباب سبق ذكرها .

بدأ محمد على فى الاعداد للكشف عن منابع النيل منذ عام ١٨٣٨م،فقد طلب فى هذه السنة من حكمدار السودان أن يعد عددا من المراكب اللازمة لنقل الجنود الذين سوف يقومون بالكشف عن منابع النيل ، ويتضح ذلك من خطابه الذى جاء فيه ما يلى :

« لقد صدر الأمر العالى بتجهيز الذهبيات الثلاث التى ستقوم الى البحر الأبيض (النيل الأبيض) مزودين بمدفعين خفيفين لاستعمالها ضد اللصوص وقطاع الطرق فينبغى لذاتكم الكريمة ، ان تنتخبوا ستة مدافع متينة جدا من هذا النوع بكافة مهماتها وقذائفها ، وان تكون سليمة من كل عيب وخلل بحيث يتم ذلك بمعرفة القبودان سليم الذى سيأتى من أجل السفر الى النيل الأبيض ، نظرا لأن المسافة التى ستقطعها هذه الذهبيات طويلة ، ثم تسلم المدافع للقبودان المومى اليه مع العلم انه اذا حصل اى اعتراض على هذه المدافع أو على قذائفها ، ومهماتها من ناحية المتانة أو اذا حدث فيها اى خلل، فان ذاتكم الكريمة مسئولة عن ذلك كله عندئذ (٢١) » .

واضح من هذا الخطاب مدى اهتمام محمد على بالكشف عن منابع النيل والذى أرسل من أجل الكشف عنه ثلاث حملات عسكرية ، فى الفترة مابين ١٨٣٩م ، ١٨٤٢م ، وقد تكونت الحملة من ٨ ذهبيات وقياستين ، وخمسة عشرة زورقا ، بالاضافة الى تزويدها بالمؤن والذخيرة والمهمات التى تكفى جنود الحملة مدة ثمانية شهور ، بالاضافة الى تزويدها ببعض الهدايا الأخرى كالخرز والأثواب والشيلان ، وقد عين على رأس هذه البعثة سليم قبودان (٢٢) .

---

(٢١) دفتر ٣٠٢ معاونة الجهادية ، وثيقة ٣١٠ فى ٣ جماد الاخر سنة ١٢٥٤ الموافق ١٨٣٨ م .

(٢٢) دفتر ٢٧٨ شورى المعونة ، وثيقة ١١٣٠ فى جماد ثان ١٢٥٤هـ الموافق ١٨٣٨ م .

وبعد ان اكتمل اعداد هذه الحملة بدات المسير من الخرطوم فى ١٠ من شهر رمضان عام ١٢٥٥ هـ الموافق ١٨٣٩م، متجهة صوب الجنوبوواصلت السير عبر النيل الأبيض ، فبحر الجبل ، مارة بجميع القبائل النيلية حتى وصلت الى موطن قبائل العلياب والبحور ، وعند هذه المنطقة لم تستطع الحملة مواصلة المسير ، فربما كان يرجع ذلك الى نقص المياه فى النهر ، وربما كان يرجع السبب الى عدم مقدرة السفن على مواصلة المسير ، ومن المرجح أن يكون السبب فى ذلك هو نقص المؤن ، وازاء ذلك اضطر سليم ان يعقد اجتماعا مع قادة السفن ليتدارسوا الموقف وفى نهاية الاجتماع قرروا الوقوف عند هذه المنطقة وهى خط عرض ١٠° ، ٥٦ شمال خط الاستواء والعودة الى الخرطوم (٢٣) .

لم يكتف محمد على بما حققته الحملة الأولى من نتائج ، فقد تمكنت هذه الحملة من كشف جميع البلاد التى مرت من خلالها ،ولكنه قرر أن يرسل حملة ثانية كى تحقق ما فشلت فى تحقيقه الحملة الأولى ، وهو الكشف عن منابع النيل ، وعين سليم قبودان أيضا ، لقيادة هذه الحملة ، وقبل ان يبدأ سليم رحلته طلب أن تزود حملته بأحد الرسامين كى يقوم برسم البلاد والاراضى التى تمر من خلالها الحملة ، وكذلك رسم الخرائط الخاصة بنهر النيل ، وقد تقرر أن يقوم بهذه المهمة المسيو سباتيه الفرنسى الجنسية ، والذى طلب من ديوان المدارس ان يزوده بما يلزمه من ادوات للرسم وخلافه (٢٤) .

وبعد أن اكتملت تجهيزات الحملة الثانية غادرت الخرطوم فى ٢٣ نوفمبر ١٨٤٠م، فى اتجاه الجنوب ، واستمرت فى مسيرتها حتى وصلت الى جزيرة جانكير ، أى عند خط عرض ٤٢° ، ٥٤ شمال خط الاستواء ولم تستطع المسير نحو الجنوب أكثر من ذلك ، وذلك اما لعدم مقدرة السفن على تكملة الرحلة أو لان الجنود اصابهم التعب ولم يصبحوا فى وضع يسمح لهم بمواصلة

---

(٢٣) السيد يوسف نصر ، دكتور : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى القرن التاسع عشر . ص . ص ٣١ — ٤٧ .

(٢٤) دفتر ٣١٠ صادر شورى المعاونة ، وثيقة ٦٧٧ فى ١٠ جماد أول سنة ١٢٥٦ هـ الموافق ١٨٤٠ م .

التقدم صوب الجنوب ، أو ربما كان يرجع ذلك الى نقص مياه نهر النيل ، أو لعدم كفاءة السفن المستخدمة فى هذه المهمة وهذا هو الأرجح ، لأن السفن التى أرسلت فيما بعد وخاصة فى عصر اسماعيل تمكنت من الوصـــول الى بحيرة البرت نيانزا ، وعلى اثر ذلك قرر سليم العودة الى الخرطوم .

ولكن على الرغم من كل هذه النتائج الهامة والتى حققتها الحملتان السابقتان الا أن محمد على لم يكتف بهذا القدر من العمل بل قرر ارسال حملة ثالثة لتحقيق نفس الغرض،وتكونت هذه الحملة الأخيرة من عشر سفن بالاضافة الى عدد من الجنود المسلحين والمزودين بكل ما يلزمهم من مؤن وذخيرة ، وبعد أن تم اعدادها بدأت المسير من الخرطوم فى ٢٧ نوفمبر ١٨٤١م ، متخذة طريقها صوب الجنوب واستمرت فى مسيرها حتى وصلت الى نفس النقطة التى وصلت اليها الحملة الثانية ، ولما تأكد لسليم قبودان عدم مقدرة حملته على مواصلة المسير صوب الجنوب ، تفل راجعا الى الخرطوم .

وكان من أهم نتائج هذه الحملات الثلاث أن ألقت الضوء على القبائل الزنجية التى تقطن المنطقة الممتدة على طول النهر ، ابتداءا من الخرطوم وحتى جزيرة جانكير ، وهى آخر نقطة وصلت اليها هذه الحملات ، وكان من هذه القبائل ، قبائل البقارة والشلك والدنكا والنوير والكيك والبحور والعلياب والبندريال والبارى ، بالاضافة الى ذلك فان هذه الحملات ألقت الضوء أيضا على عادات وتقاليد هذه القبائل وطرق معيشتهم ، وحياتهم الاجتماعية ، فكانت هذه الشعوب تعيش فى ظل نظام قبلى غير مستقر ، وكانت مساكنهم عبارة عن أكواخ مبنية من القش والطين واغصان الأشجار ، وكانت ملابسهم بسيطة جدا لا تكاد أن تكون شيئا يذكر فكانت عبارة عن قطع من جلود النمور أو جلود الماعز أو من أوراق الأشجار ، زيادة على ذلك فان علاقة هذه القبائل ببعضها كانت تتسم بالصراع وعدم الاستقرار فكثيرا ما كانت المعارك تنشب بينهم لأتفه الأسباب .

زيادة على ذلك كله فان هذه الحملات تمكنت من ربط شمال السودان بجنوبه ، وفتحت الطريق أمام تجارة الجنوب لتتجه نحو الشمال وبالعكس ، بالاضافة الى ادخال بصيص من الحضارة والمدنية الى هذه البلاد ، كما انها

مكنت الأوربيين من التوغل الى قلب أفريقيا ، فلولاها ما أستطاع كل من سبيك وجرانت وصمويل بيكر من الوصول الى أواسط أفريقيا (٢٥) .

٥ ــ التعليم :

كان من الأعمال الهامة التى أدخلها محمد على الى السودان تطويره لنظام التعليم الذى كان سائدا فى السودان ، والذى كان قاصرا على حفظ القرآن ، وتعليم مبادىء القــراءة والكتابة لبعض الأطفــال ، فى الزوايا وفى الجوامع الصغيرة التى كانت توجد فى بعض قرى السودان الشمالى ، وكانت هذه الزوايا لا تؤدى دورها فى خدمة العلم بالكفاءة المطلوبة ، لانه لم يكن لها مصدر ثابت للانفاق عليها فقام محمد على بتطويرها ، عن طريق بناء المساجد ، مثل مسجد الخرطوم ، الذى كانت وظيفته تنحصر فى تعليم أبناء السودان القراءة ، والكتابة ، وبعض العلوم الأخرى كالنحو والخط الرقعة والنسخ ، وحفظ القرآن الكريم ، وقد خصص لهذا الجامع مبلغ وقدره ، ١٥٠ قرشا فى الشهر للانفاق منه على التلاميذ الذين يدرسون فيه، لكن هذا المبلغ كان لايفى باحتياجات الامام (شيخ المسجد) والدارسين معا، مما أضطره الى أن يشتكى الى حكمدار السودان الذى طلب بدوره ضرورة

---

(٢٥) وللاستزادة تفصيليا عن الدور الذى قام به محمد على فى هذا المجال انظر كتاب المؤلف بعنوان « جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر » وانظر ملخص عن حملات سليم قبودان باللغة الفرنسية بكتاب « الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا » للمؤلف . ونشير الى فقرة منه

A.M. Jomard, membre de L'Institut Alexandrie, 7 Juin 1840.
Monsieur,

Dans ma derniére lettre, je vous promettais de vous envoyer le journal de selim, capitaine chef de l'exploration du fleuve Blanc. Comme jusqu'aujourd'hui ce journal n'est pas encore arrivé, je prends la liberté de vous envoyer la traduction de la lettre dudit capitaine, en vous réiterant la promesse de l'envoi du journal.

Agréez ....., etc.

Signé Artin Bey premier interpréte de S.A. le Vice-roi d'Egypte

زيادة المبلغ المخصص لهذا الجامع بحوالى ١٠٠ قرشا فيصبح مجموع مخصصاته ٢٥٠ قرشا ، كما طلب أيضا تخصيص ٣ أرادب من الذرة لهذا المسجد فى السنة ، كى يؤدى دوره فى خدمة العلم (٢٦) وقد بلغ عدد الدارسين فيه فى عصر محمد على حوالى ٨١ تلميذا كانوا جميعا من أبناء السودان(٢٧) ، وفيما بعد تقرر ان يتقاضى كل تلميذ من هؤلاء التلاميذ مرتبا شهريا قدره قرشان فقط ، بالاضافة الى حصوله على ربعين من الذرة (كيلة واحدة (٢٨)) يبدو لكى يهتم كل منهم بدروسه ، وهذه كوسيلة من وسائل التشجيع وان دل هذا العمل على شىء فانما يدل على مدى اهتمام محمد على بنشر العلم الدينى فى السودان .

لم يقتصر نشاط محمد على التعليمى على بلدة الخرطوم وحدها دون غيرها، بل امتد أيضا نشاطه الى بلدة دنقلة حيث وافق على انشاء مسجد آخر فيها ، وذلك لتعليم أبنائها القراءة والكتابة وحفظ القرآن (٢٩) بالاضافة الى ذلك فانه سمح لأبناء سنار بالالتحاق بالجامع الأزهر بمصر وذلك لمواصلة دراستهم العالية فكانوا يدرسون التفسير ، والفقه والشريعة الاسلامية وما الى ذلك ، وكان قد تصادف أن هؤلاء التلاميذ بعد وصولهم الى مصر ، لم يجدوا رواقا خاصا لاقامتهم فيه اسوة بغيرهم من أبناء الصعيد والمغاربة وسائر الأجناس الأخرى، ولما طلبوا لهم رواقا افادت ادارة الأزهر بأنه لاتوجد اروقة خالية، فجميع الأروقة التى يبلغ عددها ٢٢ رواقا كانت مشغولة ، ولكن عندما علم محمد على بذلك ، أمر بأن يؤجر لهم مكان آخر يستقروا فيه (٣٠) .

---

(٢٦) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٩٩٧ صادر ديوان المالية ، وثيقة ٧٦١ فى ١٢ شوال سنة ١٢٦١ هـ الموافق سنة ١٨٤٥ م .

(٢٧) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٩٩٨ صادر نظارة المالية ، وثيقة ٥٠٤ فى ٢٨ الحجة سنة ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م .

(٢٨) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٩٩٨ صادر معية ، وثيقة ١٢٢ فى ٢٦ شوال سنة ١٢٦٣ هـ الموافق ١٨٤٦ م .

(٢٩) نفس المصدر .

(٣٠) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٤١١ معية تركى ، وثيقة ٣٤٨ فى ١٦ صفر عام ١٢٦٢ هـ الموافق ١٨٤٦ م .

كان محمد على يحرص كل الحرص على ترميم المساجد التى انشاها فى السودان من وقت لآخر ، لكى تتمكن من مواصلة تأدية رسالتها ، ففى عام ١٨٤٦ وافق (محمد على) على بناء سور للجامع الذى أنشىء باحدى قرى الخرطوم وعلى بناء عشر حجرات من الطوب الاحمر بجوار هذا المسجد وبلغت تكاليفها مبلغ ٨٠٠٠ قرشا (٣١) ، وربما كانت هذه الحجرات لسكنى التلاميذ .

ويعتبر عصر محمد على فى السودان بداية طيبة لنشر التعليم الحديث بين أبنائه ، وذلك بوسيلتين اما عن طريق بناء المساجد فى عدد من البلاد السودانية ، او عن طريق السماح للسودانيين بالالتحاق بالأزهر لتكملة دراستهم ، وفيما بعد انتشر التعليم فى السودان ، بصورة افضل خاصة فى عهد خلفاء محمد على .

٦ ــ علاقة مصر ببعض الدول الافريقية والاجنبية :

أما عن علاقة محمد على ببعض الدول الافريقية وغيرها ، فكانت سيئة مع البعض وحسنة مع البعض الآخر ، فالبنسبة لعلاقته ببعض دول افريقيا فقد كانت سيئةوخاصة معدارفور التى اقتطع من أملاكها اقليم كردفان،وضمه الى نفوذه ، مما اثار سخط وغضب سلطانها (٣٢) ولكن فيما بعد حاول محمد على من جانبه ان يحسن علاقته مع سلطان دارفور ، وذلك بعقد اتفاق سلام معه ، حيث يحصل محمد على بمقتضاه على منتجات دارفور من النحاس والعبيد ، وفى هذا الصدد يخاطب محمد على البك الدفتردار بقوله :

« بما ان مقتضى ارادتنا أن نرتبط مع حاكم دارفور باتفاق مخصوص بجلب العبيد واستخراج معدن النحاس ، فقد كتبنا للحاكم المومى اليه كتابا عربيا ، يتضمن صورة الاتفاق على ذلك الأمرين وأرسلناه له ، مع احمد بك أحد الأمراء المقيمين فى مصر ، فاذا ما وصل المومى اليه عنده وأخذ منه الجواب

---

(٣١) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٤٠٨ ــ صادر معيةسنية ، وثيقة ١١١٠ ، فى ٨ ربيع اول سنة ١٢٦٣ هـ الموافق ١٨٤٦ م .

(٣٢) د / مكى شبيكة : المصدر السابق ص ٣٣٥ .

المطلوب على ذلك الامرين ، وجاء عندكم واخبر به فعليكم أن تقبلوا النظام الذى يتقرر بناء على اشعار الحاكم الموسى اليه واخبار المندوب ، وتبذلوا جهد حميتكم لاجراء مقتضاه ، وتعنوا بان يكون جلب العبيد موافقا لرغبتنا واستخراج النحاس مطابقا لطلبنا »

أما عن علاقة محمد على بالحبشة ، فيبدو أنها كانت طيبة ولكن كان يشوبها الحذر ، لأن الحبشة بكل تأكيد كانت لا ترضى عن وجود جيش مصرى منظم يتهدد حدودها الغربية ، لذلك عملت منذ اللحظة الأولى على اثارة القلاقل امام القوات المصرية وذلك عن طريق الاغارات المتكررة ، على القبائل السودانية المتاخمة لحدودها . مما دفع مصر فيما بعد الى أن تقيم عدة نقط عسكرية قوية تمتد على طول حدود الحبشة الغربية ، لكن هذه النقط العسكرية لم تمنع الصدام المسلح الذى وقع بين مصر والحبشة فيما بعد وسوف اتكلم عنه فى حينه .

وأما عن علاقة محمد على ، بالدول الأوربية . فكانت حسنة مع هذه الدول وخاصة بعد ابرام معاهدة لندن عام ١٨٤٠م حيث نجده يسمح للتجار الانجليز بالاتجار فى الصمغ والسنامكى على شرط أن يقوموا بتسديد قيمة الرسوم الجمركية المقررة والبالغ قدرها ٥ر١٢٪ (٣٣) وفيما بعد سمح لجميع الأوربيين بالاتجار فى المنتجات السودانية الى جانب التجار المصريين (٣٤) .

يبدو فقط أن هذا التغيير فى سياسة محمد على تجاه الدول الاوربية، كانت نتيجة لمعاهدة لندن ، حيث رأى مدى تأثير هذه الدول فى سير الاحداث بينه وبين السلطان العثمانى ، ورأى ايضا انه من الأفضل كسب صداقة هذه الدول بحيث تكون معه لا عليه ضد الدولة العثمانية ، فربما كان يقصد من وراء ذلك عدم تحرش هذه الدول به ، نتيجة لدخوله الى قلب افريقيا ،

---

(٣٣) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٤٥٢ — صادر معية،وثيقة ٥٧٧ فى ٢٨ رجب سنة ١٢٦٤ هـ الموافق ١٨٤٧ م .

(٣٤) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٥٩٥ صادر ديوان وثيقة ١٦٣٣ فى ٢١ شوال ١٢٦٥ هـ الموافق ١٨٤٨ م .

وأراد أن يشعرها بحسن نيته، حتى لا تتكتل ضده وتقف عقبة أمام توسعاته في افريقيا ، مثلما فعلت معه من قبل في آسيا ، وربما أراد بهذا العمل أن يترك علاقات طيبة بين هذه الدول الأوربية ، وبين خلفائه من بعده .

وأما عن علاقته بالدوله العثمانية فيبدو أنها كانت حسنة ، وذلك لأن تركيا لم تقف أمام توسعه في افريقيا ومن المرجح أن يكون هذا الرضا من جانب تركيا راجعا الى أنهـــا كانت ترى في هذا ابعاده عن مشرح التوسع في آسيا ، وهذا من الجائز لأن تركيا وافقت على اعطائه مينائى سواكن ومصوع مقابل أن يدفع لها قيمة ماكانت تحصل عليه من دخل هذين الميناءين .

الفصل السادس

الوجود المصرى فى افريقيا فى عهدى

عباس الأول ومحمد سعيد باشا

بانتهاء عصر محمد على ، طوت مصر صفحة مشرقة من تاريخها المجيد . وقد حققت فى خلال هذه الفترة تقدما كبيرا فى المجالات العسكرية والعلمية والصناعية والزراعية والتجارية ، وتمكنت من أن تضع نفسها فى المكان الملائم لها بين صفوف الدول المتحضرة ، وبعد هذه الفترة بدأت مصر صفحة جديدة تمثلت فى عصرى كل من عباس الأول ومحمد سعيد باشا ، وسوف أتحدث عن كل منهما على حدة .

١ ــ عصر عباس الأول :

تولى عباس الأول بن طوسون حكم مصر فى حياة جده محمد على ، اى فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٤٨م، وعلى اثر توليه مقاليد الحكم ذهب الى الأستانة لتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان العثمانى ، ثم عاد الى مصر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤٩م واستمر يحكمها حتى عام ١٨٥٤ ، وكان قد اهتم فى اثناء مدة حكمه بشئون مصر الداخلية ، التى تمثلت فى اصدار قرار يقضى بطرد الموظفين الأوربيين الذين كانوا يعملون فى مصر فى مختلف الأعمال ، ولكن قنصل فرنسا تدخل لدى عباس وطلب منه أن يعدل عن قراره حتى لا تتوقف الأعمال الهامة التى يقومون بها ، وقد استجاب عباس لمطلب القنصل الفرنسى ووافق على ابقاء البعض منهم ، وخاصة ممن يقومون بأعمال ذات اهمية ، مثل كلوت بك الذى كان مسئولا عن الشئون الصحية فى مصر (١) .

---

(١) محفظة ١٣٠ وثيقة بدون تاريخ .

وكان من اهتمامه أيضا انه انشأ مدرسة عرفت باسم المدرسة المقروزة. وكان يتفقدها بين الحين والآخر ، حتى انه كان اذا رأى اى تلميذ من تلاميذها لايرتاح الى شكله حكم عليه بانه من ابناء الفلاحين ، وفى هذه الحالة يأمر باخراجه من بين صفوف التلاميذ ، وقد تضمنت هذه المدرسة مراحل التعليم المختلفة الممثلة فى التعليم الابتدائى والتجهيزى والعسكرى والعالى والهندسى ، وبلغ عدد تلاميذها عام ١٨٤٩ حوالى ١٦٩٦ تلميذا (٢) . ويبدو أن عباس قصر التعليم على ابناء الأتراك فقط دون غيرهم من ابناء المصريين كى يساهموا فى حكم البلاد بينما حرم منه ابناء غير الاتراك ، حتى لا يكونوا خطرا يتهدد حكمه .

من اهتمامه كذلك انه انشأ اول خط حديدى يربط الاسكندرية بالقاهرة ولكن هذا الخط لم يكتمل الا فى عهد سلفه محمد سعيد باشا ويعتبر هذا الخط من الاعمال الهامة التى تم تنفيذها فى عهده ، لانه من أبرز مظاهر الحضارة والمدنية فى ذلك العصر .

واهتم كذلك بتحصين حدود مصر الشمالية ، وذلك بتدعيمها بنحو ١٠،٠٠٠ (عشرة آلاف من الجنود) ، خشية أن تهاجمها الدولة العثمانية عن طريق البحر ، ويرجع سوء التفاهم الذى حدث بينه وبين الدولة العثمانية بسبب رفضه تطبيق التنظيمات التركية ، التى كانت تعتبر قانونا للاصلاح ، وهذا من وجهة النظر التركية ، ولكن عباس اعتبر أن قبوله لهذه التنظيمات سوف يفقد مصر حريتها ، وحقوقها التى تضمنتها المعاهدة الدولية المبرمة فيما بين ١٨٤٠، ١٨٤١ ، لذلك اضطر عباس الى رفض هذه التنظيمات وايدته بريطانيا فى ذلك . وفى هذا الصدد يقول قنصل سردينيا فى مصر ما نصه :

« من اهم التغيرات على تفكير الحكومة الجديدة (حكومة عباس الأول ، انتهاء النفوذ الفرنسى انتهاءا يكاد يكون تاما وهو النفوذ الهائل الذى كانت تتمتع به فرنسا بمفردها بواسطة مبعوثيها الرسميين ، وبواسطة العدد الكبير من الموظفين الفرنسيين المقيمين فى مصر » (٣) .

---

(٢) انظر محافظ ابحاث السودان .

(٣) محفظة ١٣٠ ــ الوثيقة السابقة

يبدو أن عباس الأول اراد أن ينتقم من فرنسا ، لانها خدعت جده ، ولم تقف الى جانبه موقفا ايجابيا ، ضد الدول التى فرضت عليه قبول معاهدة لندن . من هنا نرى أنه ضم الى جانبه بريطانيا اعتقادا منه بأنها هى الدولة القوية القادرة على الوقوف ضد تركيا وفرنسا معا .

كل هذه الاهتمامات هى التى شغلت عباس الأول عن مواصلة التوسع فى أفريقيا ، ومحاولة الكشف عن منابع النيل ، التى حاول جده محمد على الكشف عنها ، ولكن الله لم يشأ بعد ، فكل ما عمله فى السودان وما عاد على أهله بالفائدة والنفع ، هو قيامه بانشاء مدرسة الخرطوم التى كان لها الفضل فى انقاذ أبناء السودان من وطأة الجهل والتخلف ، فكان عباس قد أصدر قرارا فى ٦ رجب سنة ١٢٦٦هـ الموافق ١٨ مايو ١٨٥٠م الى ديوان المدارس يقول فيه :

« قد صدر راى المجلس الخصوصى ، بتاسيس مدرسة بالاقاليم السودانية انقاذا لاولاد أهلها والمستوطنين بها من جحيم الجهل حتى يمتازوا باكتساب العلوم والمعارف » (٤) .

وبعد ذلك عين عباس الأول رفاعه رافع الطهطاوى لنظارة المدرسة (٥) وارسله الى الخرطوم وكان بصحبته عدد من المدرسين الاكفاء مثل القائمقام محمد بيومى ، والملازم ثان ابراهيم محمد ، والصاغقول أحمد كامل أفندى والملازم ثان على عثمان أفندى ، والملازم أول على محمد أفندى ، والملازم ثان محمد مرسى أفندى ، والملازم ثان أمين افندى والشيخ رجب والشيخ مكاوى والشيخ اسماعيل والشيخ احمد والطبيب سليمان السيوطى . وكان عباس الأول قد قرر أن يصرف لتلاميذ هذه المدرسة مرتبا شهريا قدره ستة قروش لكل منهم (٦) وكان المجلس الخصوصى قد وافق فى جلسته المنعقدة فى ١٧

---

(٤) د . عبد العزيز امين عبد المجيد : التربية فى السودان فى القرن التاسع عشر ، ص ٢٥ .

(٥) محافظ ابحاث السودان ، دفتر ٢١٣٣ ، ديوان المدارس تركى ، وثيقة ١٦٧ ص ١٣٠ فى ٦ رجب ١٢٦٦ هـ الموافق ١٨٤٩ م .

(٦) مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ السنة الخامسة فى ١٣ ابريل ١٩٤٣م

رجب سنة ١٢٦٦ هـ ، الموافق ١٨٤٩ ، على سفر مدرسى هذه المدرسة الى السودان (٧)

ولكن بعد وصول رفاعة ورفاقه الى هناك ، لم يهتم بفتح هذه المدرسة ، على الرغم من انه حصل على جميع الامكانيات اللازمة لها مثل المهمات والادوات بل اخذ يماطل ويشكو من ذهابه الى الخرطوم (٨) ويتضح ذلك من شعره الذى نظمه فى السودان وقال فيه :

« وقد فارقت اطفالا صغارا بطهطا دون عودى واعتيادى
افكر فيهم سرا وجهرا ولا سمرى يطيب ولا رقادى
وعادت بهجتى بالنأى عنهم بلوعة مهجة ذات اتقاد
اريد وصالهم والدهر يأبى مواصلتى ويطمع فى عنادى » (٩)

من هذه الابيات الشعرية يتضح مدى حنق رفاعة الطهطاوى على سفره الى السودان ، حيث اعتبر نفسه سجينا ، حرم من وطنه ومن رؤية اولاده اعز ما فى الوجود واعتقد ان عباس رغب فى التخلص منه بأرساله الى الخرطوم ، لذلك اهمل فى فتح هذه المدرسة وشجعه على ذلك حكمدار السودان اسماعيل ابو جبل ، الذى كان لا يميل الى افتتاح هذه المدرسة ، لاعتقاده بأن افتتاحها سوف يرهق ميزانية الحكمدارية (١٠)

من المرجح ان عباس لم يكن يقصد التخلص من الطهطاوى بارساله الى السودان ، بل كان يقصد نشر العلم والمعرفة هناك ، فلو كان عباس يريد التخلص من الطهطاوى لتخلص منه بسهولة ، ودون ادنى عناء ، لان الطهطاوى لم يكن بالمشكلة او بالخطر الذى يتهدد عرش عباس الأول ، وفى

---

(٧) سجل ٢١٣٤ ديوان مدارس تركى ، وثيقة ٧٩ فى ٢١ رجب ١٢٦٦هـ ـ الموافق ١٨٤٩ م .
(٨) د. عبد العزيز امين عبد المجيد : المصدر السابق ص ٣٠
(٩) د. احمد احمد سيد احمد : المصدر السابق ص ٩٢
(١٠) د. عبد العزيز امين عبد المجيد : المصدر السابق ص ص ٣١ ، ٣٣

هذا الصدد يضيف الدكتور احمد احمد سيد احمد قوله أن الغرض من انشاء مدرسة الخرطوم هو الاسهام فى حل ازمة الادارة فى البلاد السودانية ، هذه الازمة التى بدا حلها غير ممكن دون الاستعانة بالمتعلمين ، الذين سوف يقومون بمهمة انتشار الثقافة فى جنوب الوادى ، وهذا راى ربما يكون على جانب كبير من الصحة ، ومن المحتمل ان يكون عباس قد خشى على نفسه من مبادىء الطهطاوى ، كما خشى من تاثيرها على المثقفين وهذا احتمال ضئيل . ولكن لو سلمنا فرضا ، بأن عباس نفى الطهطاوى الى السودان ، فهو حر فى ذلك ، لان الحاكم له الحق فى اختيار الأشخاص الذين يتعاونون معه . وله الحق ايضا فى ابعاد من لا يرغب فيهم .

وكان عباس من ناحية اخرى يتابع اخبار مدرسة الخرطوم اولا بأول فلما علم بتراخى الطهطاوى فى فتحها ، اصدر له امرا يقضى بفتحها ، وكان ذلك فى شهر شوال عام ١٢٦٩هـ وقد دخلها من التلاميذ منذ اللحظة الأولى ٣١ تلميذا ، وبعد ثمانية شهور من افتتاحها بلغ عدد التلاميذ حوالى ٨٤ تلميذا ، وكان سن هؤلاء التلاميذ يتراوح فيما بين السابعة والثانية عشرة ، وكانت المدرسة داخلية على غرار مثيلاتها فى مصر ، فكان يصرف لكل تلميذ حصيرة وسجادة عسكرية ومخدة من القطن وحرام بلدى للغطاء ، واثناء الدرس كان التلاميذ يجلسون على الحصر ، وكانت الدراسة تبدأ فيها منذ الصباح وحتى قبل غروب الشمس . وكان التلاميذ يتناولون طعام الغداء مع الأساتذة وهم جالسون على الأبراش (١١) .

استمرت الدراسة فى المدرسة مدة تسعة اشهر ابتداء من شوال سنة ١٢٦٩ وحتى اول شعبان سنة ١٢٧٠هـ (١٢) واذا كانت المدرسة لم تستمر فى تأدية مهمتها مدة طويلة (أقل من عام) الا ان نشاطها كان يزيد على ذلك بكثير ، وفى هذا الصدد يقول رفاعة الطهطاوى ما نصه :

« وكذلك قد تعلم فقهاء الخرطوم ممن معى من المشايخ تجويد القرآن الشريف ، وعلم القراءات حتى صاروا ماهرين فى ذلك » (١٣) .

---

(١١) د. احمد احمد سيد احمد ، المصدر السابق ص ص ١٠٥ ، ١٠٧
(١٢) د. عبد العزيز امين عبد المجيد ، المصدر السابق ص ٣٥
(١٣) د. احمد احمد سيد احمد ، المصدر السابق ص ١١٩

لم تكد المدرسة تبدأ عامها الثانى حتى اقفلت أبوابها ، وذلك بسبب موت مؤسسها عباس الأول ، وبسبب مجيء محمد سعيد باشا الى أريكة الحكم حيث اصدر ارادة سنية فى ٢٧ شوال ١٢٧٠ تقضى باغلاق المدرسة ، وعلى الفور عاد رفاعة رافع الطهطاوى الى مصر .

ويمكن القول بأن مدرسة الخرطوم كانت من اعظم الانجازات المصرية فى السودان فلأول مرة يدخل نظام المدارس فى هذه البلاد ومع أن هذه المدرسة لم يقدر لها الاستمرار فى مواصلة الدراسة مدة طويلة من الزمن ، الا انها بدون شك تركت آثارا على جانب كبير من الأهمية لدى السودانيين انفسهم ، فمدتحها كان بمثابة الشعلة التى اضاءت مكانا مظلما ثم انطفأت لسبب ما ، فالذى يرى النور لا يمكنه أن يرضى بالظلام .

والى جانب اهتمام عباس بنشر التعليم فى السودان فانه اهتم ايضا بتجديد بعض مبانى مدينة الخرطوم ، واذكر على سبيل المثال انه فى عام ١٨٥١ م ، أمر بتجديد البعض من مبانى هذه المدينة وقد بلغت تكاليفها نحو ٨٩٫٦٤٤ قرشا (١٤) .

اهتم عباس ايضا بجلب عدد قليل من العبيد ، ففى عام ١٨٥١ جلب ١٨ عبدا كانوا عبارة عن سبعة من الذكور الشباب ، وخمسة من كبار السن ، ٢ من الأولاد الصغار، ٤ من النساء ،وكان الغرض من جلب هذا العدد ،هو استخدامهم فى الجفالق ، ولكن بعد وصولهم الى الجفالق تمكنوا من الهرب الى السودان ، ولكن حكمدار السودان تمكن من القاء القبض عليهم واعادتهم بالتالى الى مصر ، وبلغت تكاليف نقلهم هذه المرة ٢٠٦٠ قرشا ، ٩ بارة ، وفى عام ١٨٥٣م جلب عباس الأول عددا آخر من العبيد بلغ ١٦ عبدا ، ما بين ذكور واناث،وذلك لحساب الجفالق ايضا (١٥) وفى عام ١٨٥٤م، ورد عدد

---

(١٤) محافظ ابحاث السودان دفتر ٩٦ وارد معية عربى ، وثيقة ٩ ص ١١٥ فى ٢٠ الحجة ١٢٦٨ هـ الموافق ١٨٥١ م

(١٥) دفتر ٦٥٨ وارد ديوان الكنخدا ، وثيقة ١٨٨٤ فى غرة ربيع آخر ١٢٧٠ هـ الموافق ١٨٥٣ م .

آخر من العبيد بلغ ٢٦ عبدا كانوا جميعا من الأناث ، وذلك للعمل فى المنازل كخدم ، وبلغت تكاليف نقلهم ١٩٦٠٤ قرشا ، ٣٥ بارة (١٦) وكان من المتبع مع هؤلاء العبيد انه عند مرورهم من الجمارك المصرية يتم تطعيمهم ضـــــد الجدرى .

وبالاضافة الى جلب عباس الأول للعبيد ، فانه جلب ايضا عددا آخر من الماشية السودانية بلغ ١١٠١٦ راسا ، بيع منها عدد للعمل فى المديريات بسعر يتراوح فيما بين ١٣٨ ، ٢٨٥ قرشا للراس الواحد ، وبيع الباقى بنفس السعر الى ديوان الجهادية وذلك لتوزيع لحومهم على جنود الجهادية (١٧) زيادة على ذلك فانه جلب عددا من الابل بلغ ١٠٠٠ رأس (١٨) هذا بايجاز عن عهد عباس الأول .

٢ ــ عصر محمد سعيد باشـــا :

تولى محمد سعيد باشا حكم مصر فى ١٨ يونيو عام ١٨٥٤م اى بعد وفاة ابن أخيه عباس الأول مباشرة ؛ وقد اعترف السلطان العثمانى بالوالى الجديد ؛ الذى سافر الى الآستانة لتقديم فروض الطاعة والولاء ، وعاد سعيد بعد ذلك من هناك الى مصر فى نفس العام . وقد تميز محمد سعيد باشا بأنه كان على جانب من الثقافة ، وذلك لتعلمه فى أوربا ، واجادته اللغة الفرنسية الى جانب الانجليزية ، وقد أثرت هذه الثقافة بالتالى فى تصرفاته ، فكان يميل الى الأوربيين ويتضح ذلك من منحهم الكثير من الامتيازات التى ساعدت على زيادة عددهم فى مصر .

وبعد ان اعتلى محمد سعيد باشا الحكم شغل نفسه بشئون مصر الداخلية ؛ شانه فى ذلك شأن عباس الأول ، وكان من أبرز الأعمال التى

---

(١٦) دفتر ٢٢٩٨ وارد المعية ، وثيقة ٦١٢ ص ٥٤٧ فى ١٠ ربيع ثانى ١٢٧٠ هـ الموافق ١٨٥٣ م

(١٧) محفظة ٢ معية تركى ، وثيقة ٣٧٤ ص ٨٨ فى ٢٥ رجب ١٢٧٠ هـ الموافق ١٨٥٣ م .

(١٨) دفتر ١٠٤٦ ، وارد نظارة المالية ؛ وثيقة ١٦١٣ فى رجب ١٢٧٠هـ الموافق ١٨٥٣ م .

شغل نفسه بها فى أثناء فترة حكمه ، هى اهتمامه بالتنظيم الادارى فى مصر ، الذى تمثل فى انشاء المجلس الخصوصى الذى كان من اختصاصه مناقشة الأوامر ذات الصفة العامة ، وذلك قبل عرضها على الوالى ، وكذلك مناقشة اللوائح الادارية ، زيادة على ذلك فانه انشأ ثلاثة دواوين هى ، ديوان الداخلية والمالية والحربية ، بالاضافة الى ذلك فانه أصدر قانون ملكية الأرض الزراعية عام ١٨٥٤ م ، الذى بمقتضاه خول للفلاحين الحق فى ملكية الأرض والانتفاع بها وحق التوريث والتأجير للغير والرهن والبيع .

وكان من أعماله الهامة أيضا اكماله لمشروع الخط الحديدى الذى بداه عباس الأول والذى يربط بين الاسكندرية والقاهرة ، وقد تم تشغيله بالفعل فى عام ١٨٥٦م .كما أنه قام بمد خط حديدى آخر يربط القاهرة بالسويس(١٩) زيادة على ذلك فانه قرر تنفيذ مشروع قناة السويس ، الذى بدأ العمل فيه عام ١٨٥٨ م ، والذى انتهى فى عام ١٨٦٩ م ، وأدت هذه السياسة التى اتبعها محمد سعيد باشا الى عدم الاهتمام ببلاد السودان ، وأدى ذلك بالتالى الى تدهور أحوالها ، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، بحيث لم يعد هناك أى اهتمام بالتجارة أو الزراعة ، وربما زاد اهمال مديرى المديريات من تفاقم المشكلة ، ولكن لما علم سعيد باشا بهذه الحالة السيئة التى وصلت اليها البلاد ، قرر القيام بزيارة السودان لكى يقف بنفسه على أحوالها من كافه النواحى ، حتى يتمكن من وضع النظم والقوانين التى تكفل لهذه البلاد رفاهيتها وعمرانها (٢٠) وفى هذا الصدد يخاطب سعيد باشا حكمدار السودان بقوله :

«حقا انه من دواعى الاسف الا تنظم شئون السودان التابعة لحكومتنا كما نريده الى الان ، برغم حرصنا على تقدمها ورغبتنا فى عمرانها ، وبالطبع ليس من الجائز أن تظل هذه البلاد على حالتها هذه ، ولذلك كنت افكر منذ مدة أن أسافر اليها بنفسى لأقوم برحلة فى ربوعها واشاهد ايضا أحوالها

---

(١٩) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل . ج ١ ، ص ٨٦

(٢٠) محفظة ٣ مديريات ، وثيقة ٣٧٩ فى ١١ ربيع أول ١٢٧٣ هـ الموافق ١٨٥٦ م .

عن كثب ، واقف على شئونها حيث اضع من النظم والأسس ما هو كفيل بسعرانها ، ورفاهية سكانها من الرعاية والاهلية » (٢١) .

تمكن سعيد باشا اثناء هذه الزيارة من اصدار عدة قرارات كان من شانها العمل على حل مشاكل الوطنيين السودانيين ، وكان من هذه القرارات الغاء منصب الحكمدارية ، وارتباط كل مديرية من مديريات السودان بالقاهرة، كما انه اسند جباية الضرائب للمشايخ والعمد وزعماء القبائل ، بحيث يقومون بتوريدها راسا الى خزانة المديرية (٢٢) بالاضافة الى ذلك فانه أمر بتخفيض الضرائب المفروضة على الوطنيين بحيث جعل مال كل ساقية ٢٠٠ قرشا فى العام بدلا من ٢٥٠ قرشا ، وجعل ضريبة الأرض التى لا تروى بالسواقى ٢٥ قرشا بينما جعل ضريبة الفدان من أرض الجروف ٢٠ قرشا ، زيادة على ذلك فانه أعفى المشايخ من ضريبة ساقية من كل ٢٥ ساقية ، اى انه كان عليهم أن يدفعوا ضريبة عن ٢٤ ساقية فقط ، كما انه جعل ضريبة النخلة المثمرة قرشا واحدا والنخلة الذكر ٣٠ فضة والغى أيضا نظام السخرة الذى كان سائدا فى بلاد السودان ، فأمر بعدم تسخير جمال الأهالى فى نقل أمتعة المرى المختلفة ، أو استقدام أبنائهم بدون رضائهم (٢٣) .

لم يكتف محمد سعيد باشا بذلك بل اشرك البعض من شيوخهم فى الحكم، فقد نصب الشيخ رجب ادريس شيخا على جبال الفونج ، وكان سعيد قد طلب من جميع المشايخ والعمد والأهالى أن يطيعوا أوامره (٢٤) .

وكان الأهم من ذلك كله اصداره أمرا بالغاء تجارة الرق فى افريقيا وفى هذا الصدد يخاطب حكمدار السودان بقوله :

---

(٢١) نفس المصـــــدر .

(٢٢) د. مكى شبيكة ، المصدر السابق ص ٥٠٧

(٢٣) محافظ ابحاث السودان ، دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى ، وثيقة ١٥ص٣٣ فى ٢٩ جماد أول ١٢٧٣ هـ الموافق ١٨٥٦ م .

(٢٤) محافظ ابحاث السودان،دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى،وثيقة ١٨ص٥ ٢٥ جماد أول ١٢٧٣ هـ الموافق ١٨٥٦ م .

« ان مبيع وشراء الجوارى السود والعبيد الذين صار جلبهم من السودان، ودارفور ، قد صار منعه من طرفنا كلية ، وقد صدر الامر من طرفنا فى هذا التاريخ الى المالية لاجل التحرير الى جمرك اسوان والى مدير جرجا واسيوط، فى خصوص عدم اعطاء الرخصة للجلابين المارين عليهم بالأسرى الى مصر ، وحين تصير هذه الممنوعية معلومكم يلزم الدقة والاعتناء التام فى منع بيع وشراء الجوارى والعبيد بالبلاد سرا وجهرا ، واذا وجد جلابين معهم اسرى — وقاصدين الجلب الى مصر يصير حصرهم وارجاعهم الى محلهم فتستمر هذه الممنوعية على الدوام بحيث لا يرد اسرى الى مصر ذكورا واناثا . من بعد هذا كله يلزم الحـــذر والمجازية من وقوع من يخـــالف هـــذه الارادة فى حكمداريتكم (٢٥) » .

يبدو ان اجراءات سعيد تجاه وقف تجارة الرق لم تأت بالنتيجة المرجوة مما اضطره الى أن يتخذ اجراء اكثر حسما ، تمثل فى عدم دخول العبيد الى مصر والغاء اسواقها (٢٦) .

وأما عن علاقة سعيد ببعض الدول الافريقية ، فكانت علاقته طيبة مع دارفور والحبشة ، فبالنسبة للحبشة نجد انه بمجرد وصوله الى الخرطوم

---

(٢٥) د. مكى شبيكة ، المصدر السابق ص ٥٠٨ .

(٢٦) Said pasha forbade the sale and purshes of the slaves and close the slave market in Egypt. Explicit orders were given, that slave should not be allowed to cross the bounderies on his dominions, and instructions to that effect were issued to authorities at the southern frontiers, as well as at the Red sea literal. In 1855 Said issued a decree that gave full freedom to all the slaves in Egypt, who of their own accord, wanted to leave the service of their masters, the government undertaking the task of finding work in such case for the freed, both men and women. He wanted to stop altogether the slave trafic in the Sudan. Regard to shukry, M. The Khedieve Ismail and slavery in the Sudan P. 112.

أرسل خطابا الى ملكها ، يشرح له فيه مدى حرصه على علاقة حسن الجوار بين الدولتين ، ويتضح ذلك من قوله :

« تعلقت ارادتنا بالمرور على من كان تحت أنظارنا من الاقاليم السودانية الملحقة بجهاتنا المصرية ، فوصل الان ركبنا اليها ، وحل موكبنا لديها بقصد النظر فيما عليه أهلها من الأحوال والتشبث باسباب أبلاغهم فى كيفية معاشهم لدرجة الرفاهية ، واكمال هذا غاية قصدنا ، لاقصد لنا سواه ، وان لكل امرىء ما نوى ، وحيث كان بيننا وبين حضرتكم من حسن الجوار ، وقرب الدار ، وصلة المصالح التجارية التى هى اقوى صلة بين أعضاء العائلة البشرية فقد رأينا من الاقتضاء ان نوجه لحضرتكم هذا الخطاب لتعلم به حقيقة ما قصدناه لقربنا من هذه الجهة من حسن النية وما هو قائم بيننا من طيب ، وما نحن مصممون عليه من الاستمرار على حسن المعاشرة اللازمة لحق المجاورة (٢٧) » .

من قراءة هذا الخطاب يتضح لنا مدى حرص سعيد باشا على علاقة حسن الجوار مع ملك الحبشة ، حيث افهمه أن زيارته للسودان كانت بغرض الوقوف على أحوال هذه البلاد من كافة الجوانب ، وليست بقصد الاعداد لحملة عسكرية يمكن بها مهاجمة حدود الحبشة المجاورة للسودان .

بعد أن تسلم ملك الحبشة رسالة محمد سعيد باشا الودية اقتنع بموقفه ، والدليل على ذلك انه طلب من سعيد ان يرسل له أحد القسس المصريين كى يقوم بالوعظ فى الكنائس الحبشية لمدة عدة شهور ، يعود بعدها هذا القس الى مصر ، وقد استجاب سعيد لمطلب ملك الحبشة الذى أرسل خطابا الى سعيد قال فيه :

« بخصـــوص وصول حضرة القديس ابونا البطريرك كيرلس بطريرك الأقباط ، وبحضوره لطرفنا ، وبالسؤال معه عن جنابكم أعلمنا عن مجيئكم لنا ورغبتكم فى دوام المحبة والوداد بيننا ، وفرحنا بذلك كثيرا ، واخبرنا كذلك

---

(٢٧) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى ، وثيقة ١٣ ، ص ١٠ فى جماد أول ١٢٧٣هـ. الموافق ١٨٥٦ م .

بانصافكم وعدلكم بين الرعية ، لأن طبيعتكم خلقت للخير والصلاح ، ونحن نريد دوام المحبة بيننا ودوام العشرة ، وكذلك ارسلنا لكم سبعة خيول ، منهم ثلاثة كبار واربعة صغار ، بالاضافة الى درقة فضة مطلية بالذهب وحربتين » (٣٨) .

بعد أن تسلم محمد سعيد باشا هدية ملك الحبشة ارسل له بالتالى هدية اخرى ، تعبيرا عن علاقة الود والصداقة بين الملكين ، وكانت هذه الهدية عبارة عن ٢ مدفع من النحاس الأصفر ، ١٠٠ بندقية كبسول بروحين ، ١٢٦ ذراع من القماش الحرير ، ١١٠ ذراع من القماش القطيفة ، خمس خيام مبطنة بالحرير ، ومزودة بالأعمدة (٢٩) .

كان ملك الحبشة قد احتفظ بالبطريك المصرى ، الذى كان قد ذهب الى الحبشة ، كى يقوم بالوعظ فى كنائسها لعدة شهور ، مما اضطر محمد سعيد ان يطلب منه ضرورة عودة هذا القس حتى لا تتعطل الشعائر الدينية فى مصر ، ويتضح ذلك من خطاب سعيد باشا الى ملك الحبشة والذى جاء فيه ما نصـــه :

« لا يخلصكم تعطيل الشعائر الدينية للاقباط فى بلدنا ، كما لا يرضيكم تعطيل وظيفته وازدياد الشكوى من أجله (٣٠) » .

من المرجح ان يكون السبب فى طلب سعيد عودة البطريرك من الحبشة الى مصر يرجع الى اهمية هذا البطريرك بالنسبة للعقيدة المسيحية فى سائر افريقيا ، وربما يرجع ذلك الى سوء التفاهم الذى بدا يظهر فى الأفق ، او الذى يرجع سببه الى احتضان الحبشة للمتمردين من ابناء السودان .

---

(٢٨) محفظة ١٩ ، وثيقة ٧١ فى ٢٥ ربيع اول ١٢٧٤هـ الموافق ١٨٥٧م .

(٢٩) دفتر ١٨٩٠ آوامر عربى ، وثيقة ٨٨ ص٢٦ فى ٢١ محرم ١٢٧٥ الموافق ١٨٥٨م .

(٣٠) محافظ ابحاث السودان ، دفتر ١٨٨٩ دواوين ، وثيقة ١٤ ص ٦٨ فى ٢٨ ربيع اول ١٢٧٥ هـ الموافق ١٨٥٨ م .

ومن الدول التى كانت لها علاقة طيبة مع مصر فى عهد سعيد سلطنة دارفور ، التى كانت لاتزال بعيدة عن النفوذ المصرى ، وكان سعيد من جانبه ومنذ البداية حريصا كل الحرص على ان تظل علاقته بهذه السلطنة طيبة حتى لا يصطدم بها فى معركة حربية وحتى تستمر التجارة بينها وبين مصر فى الازدهار ، ويتضح ذلك من خطاب سعيد الى سلطان دارفور الذى جاء فيه ما نصـــه :

« بالرغم من توفر قواتنا البرية والبحرية ، الا اننا لا نفكر فى القيام بأى عمل يتنافى مع الانسانية (٣١) » .

واضح من هذه العبارة ان سعيد باشا كان يريد ان يفهم سلطان دارفور بأن مصر تتعامل معه من مركز القوة وليس من مركز الضعف حتى لا تسول له نفسه فى التفكير فى القيام بأى عمل عسكرى ضد السيادة المصرية فى السودان ، ورغب سعيد أيضا أن يفهمه أنه رغم هذه القوة الا أن مصر لا تفكر فى شن العدوان ، بقدر ما تفكر فى نشر السلام والأمن فى ربوع هذه البلاد ، حتى ينعم أهلها بالسعادة والرفاهية والرخاء .

ولكى يدعم سعيد العلاقة بينه وبين سلطان دارفور أرسل له بعض الهدايا الرمزية التى تمثلت فى خمسة سيوف ، كان واحد منها مذهبا ومرصعا بالجواهر ، وكان الباقى مرصعا بالفضة ، وخيمة مبطنة من الداخل بقماش مقصب ، وعربة ركوب ، باربع عجلات ، واربع طاقات (ثوب) من القماش المقصب (٣٢) .

---

(٣١) محافظ ابحاث السودان ، دفتر ١٨٨٩ دواوين ، وثيقة ١٣ ، ص٧ فى ٢٨ ربيع أول ١٢٧٥هـ الموافق ١٨٥٨م .

(٣٢) نفس المصـــــدر السابق .